الكتاب الاول

ابن شهيد

الأندلسي

حياته ، أدبه ، رسالة التوابع والزوابع

obeikandl.com

obeikandl.com

ابن شهيد

٣٨٢ – ٤٢٦ هـ (٩٩٢ – ١٠٣٤ م)

في الدولة العامرية

هو ابو عامر احمد بن ابي مروان عبد الملك بن مروان بن احمد بن عبد الملك من شُهَيْد ، ثم من أشجع وهم بطن من غطفان . ويتحدر من سلالة الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحّاك بن قيس الفِهري يوم مرج راهط. وكان جد ابيه احمد ابن عبد الملك وزير الخليفة الاموي الناصر عبد الرحمن الثالث، واول من تسمى بذي الوزارتين في الاندلس .

وولد ابو عامر بن شُهَيْد بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم ابن عبد الرحمن الناصر ، والأمر يومئذ للحاجب محمد بن ابي عامر الذي حجر على الخليفة القاصر ، واستبد بالامر دونه ، وتلقب بالمنصور كما يتلقب الملوك . واثبت ابن بسام في الذخيرة رسالة لابن شهيد خاطب بها المؤتَمن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن محمد بن ابي عامر، يذكر فيها ما للعامريين من الفضل عليه وعلى ابيه ، فنعلم منها ان المنصورَ استعمل والده على الجهة

obeikandi.com

الشرقية تسعة اعوام بتدمير وبلنسية ، ولم يصرفه عنها حتى سئم العمل والتمس الإقالة ؛ فأقاله على رضاه . فشخص الى قرطبة ، ومعه اربع مائة الف دينار ناضّة ، ومائة الف من ذهب آنية ، ووثائق خمس مائة زوج مكتسبة ، ومائتا نسمة من رقيق الصقلب منتقاة . فكتب اليه يعرض عليه ما جاءه به ، ويحكّمه فيه . فجاوبه يقول : « لو اردنا اخذ ما اعطيناك ، ما قدّمناك . ونحن نخاف ان تستصفي نفقتُك ما استقتَه ، وتأتي على ما اجتلبتَه ، بارتفاع ثمن الطعام ، وانك لم تَرِدْ منه على ذخيرة . وقد صككنا لك بالفي مُدْيٍ بشطرين من قمح وشعير تستظهر بهما على زمانك ، فاقبضها من أهراء فلانة[1] لقربها من مكانك ، ان شاء الله . »

فهذا الرضى من المنصور كافٍ لان يطلعنا على منزلة ابي مروان عنده ، وما له من الحظوة والكرامة في دولته ، وعلى النعمة التي كان يتقلب كاتبنا في احضانها منذ طفولته . ونتبين في مكان آخر من الرسالة عناية الحاجب به ، وعطفه عليه ، اذ كان في الخامسة من سنيه . فقد جيء به اليه في يوم مطير ، وبين يديه تفاحة كبيرة ، ورآه ينظر اليها نظر من يشتهيها ، فأمره

---

١ فلانة : كنى بها عن اسم قرية او بلدة .

بان يأخذ ويعض فيها ، فضاق فمه عن الاحاطة بجزء من اجزاء كرتها ، وصغرت كفه عن القبض الا بمخنق من مخانق انحائها، فتناولها المنصور منه ، وجعل يقطع له بفمه ويطعمه . ثم دعا ولده عبد الرحمن الناصر ، فقال له : « احمله الى امك . » فأخذ بيده ، ومعه رجل يكنى ابا شاكر ، فامتنع الطفل عن السير من المطر، فصاح بهما المنصور : « احملاه على اعناقكما. » فلفّا اعضادهما ، ووصلا اذرعهما باعناقهما ، واقلاّه الى زوج الحاجب ، فأجلسته على سريرها ولاطفته ، ثم امرت له باربعة آلاف درهم : الف عنها ، وثلاثة آلاف عن بعلها . ويخبرنا ابن شهيد انه كان يأمل ان يوزعها على الخدمة والعمال من الصبيان وصبايا الجيران ، فصادره عليها ابوه ، ففرق منها على حاشيته ، واشار بحمل الباقي الى خزانته . فلما بلغ المنصور ذلك ، بعث اليه بخمس مائة دينار ، واقسم على ابيه بحياته الاّ يمنعه منها ، فتصرف فيها على هواه .

ويذكر لابنه عبد الملك المظفّر يداً عليه وهو ابن ثماني سنوات ، والمظفّر يومئذ وليّ للعهد ، لان المنصور توفي سنة ٣٩٢ ه (١٠٠٢ م) وابو عامر بن شهيد في نحو العاشرة من عمره . وذلك ان والده ابا مروان زهد في الدنيا وتنسك ، ونظر الى الآخرة بعد ابلاله من مرض ألمّ به ، فأشاح بوجهه عن

الجاه والشهوات وهما ملء راحتيه . وبدا له ان يصدّ ولده عن مشارع الحياة العذبة ، فيحلق له لمّته ، ونزع عنه ثيابه الحريرية ، والبسه مدارع الكتان ، وحمله على التقشف وشظف العيش . فضاق الصبي ذرعاً بخطة أُكره عليها ، « وكانت افدح نازلة نزلت بصبوته ، واقلق حادثة سلبت رونق بهجته » على حد تعبيره . فذات يوم زارهم الوزير ابن مَسلمة يعود والده ، فسأله عن حاله ، فكان جوابه نشيجاً وعويلاً ؛ فلما رجع أخبر المظفر خبره ، فاستقدمه اليه ، وامر به فألبس ثياب الحرير ، وضمخ بالطيب ، وحمله على فرس كريم ، واتبع ذلك الف دينار في طبق ، وعقد له على الشرطة ، لكي لا يجعل لابيه سبيلاً عليه ، فكانت لسنه ارفع خطة ، كما يقول .

ولبث ابو عامر متصلاً بالمظفر بعد وفاة ابيه المنصور وانتقال الامر اليه (٣٩٢ ه) . ولكن ليس لدينا من اخباره في عهد هذا الامير ما يستحق الذكر ، وكانت ولايته سبع سنوات ، وتوفي سنة ٣٩٩ ه (١٠٠٨ م). ومع ان ابن شهيد بلغ رتبة الوزارة في الدولة العامرية ، إلا انه لم يصل الى منزلة الكتابة في الديوان ليلقب بالوزير الكاتب ، على شدة تشوقه الى بلوغ هذا الشرف اسوة بغيره من الوزراء الادباء . ويخبرنا ان ثقل سمعه قعد به عن الكتابة للامير ، كما قعد بالجاحظ عنها افراط

جحوظ عينيه ، وبأبي القاسم ابن الافليلي ورم انفه[1] ، ويقول في ذلك : « اذ لا بد للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، واذن ذكية تسمع منه حسه ، وانف نقي لا تُذم انفاسه عند مقاربته له . »

وصار المُلك بعد المظفر الى اخيه عبد الرحمن الناصر ، فجرى كأخيه وأبيه ، في الحجر على الخليفة هشام بن الحكم ، والاستقلال بالأمر دونه . ثم طمعت نفسه في الخلافة ، بعد شهر من ولايته ، ولم يكن لهشام أولاد ، فطلب منه ان يوليه عهده ، ففعل . فسخط الأمويون على الخليفة الضعيف لاخراجه الامامة من أيديهم ، فخلعوه وسجنوه ، وبايعوا محمد بن هشام المهدي ، من حفدة عبد الرحمن الثالث . وكان الناصر في طليطلة ، فلما بلغه الخبر قفل الى قرطبة ، ولكنه لم يجرؤ على دخولها لأن جيشه تخلى عنه ، والفقهاء أخذوا يحرّضون الناس عليه . وكان يلقب بالشنشول او الشنجول (Sanchol) وهو تصغير سانشو او شانجُه ، لأن امه أميرة اسبانية ، وأبوها شانجه إما انه ملك

---

١ قال ابن بسام في الذخيرة ان محمد بن عبد الرحمن المستكفي الخليفة الاموي ، استكتب ابا القاسم ابن الافليلي بعد كاتبه الوزير بن برد ، فوقع كلامه جانباً من البلاغة ، لانه كان على طريقة المعلمين المتكلفين . فلم يجر في اساليب الكتاب المطبوعين ، فزهد فيه .

قشتالة او ملك النافار ، كما يقول دوزي[1] ؛ فكلاهما كان يخطب ود الحاجب المنصور ، ويرغب في الازدلاف اليه . فلم يسع الفقهاء أن يسلموا مقاليد الخلافة الى الشنجول ، وهم يرون فيه شانجه الصغير وابن ملك الاسبان ، فما زالوا يهتفون به حتى أثاروا الحفائظ عليه ، فكرهت نفسه البقاء ، وأحبّ الانتحار فلم يُتح له ، لأن المهدي أدركه بوزيره فقبض عليه ، واحتزّ رأسه ، فزالت بموته الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) .

الفتنة

غير ان محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنه جافى البربر لميلهم الى العامريين ، فاجتمعوا بظاهر قرطبة ، فأتمروا به ، وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث الناصر ، وتسمى بالمستعين . فقامت الفتنة بين الاميرين ، واتسعت ميادينها ، فغزا البرابر قرطبة ، فاستولوا عليها بعدما قتلوا خلقاً عظيماً منها ؛ ودخلها المستعين في ختام المائة الرابعة للهجرة ، وهرب المهدي الى طليطلة يستنصر الاسبانيين ، فأمدوه بالعساكر ، فنهض بهم الى قرطبة ، فامتلكها وهزم المستعين والبرابرة . ثم

---

١ يقول بروكلمن انه ملك النافار .

عاد هؤلاء الى محاربته، فخشي القرطبيون من اقتحام البربر عليهم، فثار الصقالبة ، فأخرجوا هشام بن الحكم من السجن، وجددوا له البيعة ، على امل ان يعتصموا به من البرابرة ، وقتلوا المهدي تخلصاً من الفتنة التي اثارها عليهم . ولكن المستعين استمر على حصار قرطبة حتى افتتحها عنوة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م) فقتل هشاماً، وتولى مكانـه ، وتغلب البربر على الاحكام بعدمـا انتهبت العاصمة وخرب اجمل قصورها، واصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها .

وكان علي بن حمُّود الادريسي قد جاء الأندلس من المغرب، فدعا البربر الى مبايعته ، فأجابوه لما للادارسة من الكرامة عندهم، فدخل قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) فقتل المستعين ، وتلقب بالناصر . فثار عليه خيران الصقلبي صاحب المَرِيَّة ، والمنذر ابن يحيى التُجيبيّ صاحب سَرَقُسطة ، وبايعا عبد الرحمن الرابع ، من عقب الناصر عبد الرحمن الثالث ، فتلقب بالمرتضى. واستقام الامر لعلي بن حمود نحو عامين الى ان قتله صقالبته في الحمـام سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) فقام بالامر بعده اخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ؛ فجمع خيران والمنذر الناس ، وفيهم رجـال الدين ، فصـدَّقوا بيعة المرتضى ، ونصبوه خليفة بشرقي الأنـدلس . ثم ساروا به الى غرناطة ، وعليها زاوي بن زيري من حزب قاسم

ابن حمود ، فرفض المبايعة ، وقاتلهم . فاتفق المنذر وخيران على خذل المرتضى لأنه ابى ان ينزل علـى مطالبهما ، ففاوضا ابن زيري في ذلك ، ثم انهزما برجالهما ؛ فقاتـل المرتضى حتى صُرع كثير من اصحابه حوله ، وانكشف عنه الباقون ، فخاف ان يُقبض عليه ، فولـّى الى وادي آش ، فلحق به رجال خيران فذبحوه سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) .

واستوى القاسم بن حمود على العرش مدة اربع سنوات ، حتى جاء من طنجة يحيى ابن اخيه علي ينازعه الملك ، فاستولى عـلى قرطبة سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) وتلقـب بالمعتلي ، وفر المأمون الى اشبيلية فاستجـاش بعض البرابرة ، ثم رجـع الى قرطبة سنة ٤١٣ هـ وملكها ، وهرب المعتلي الى مالـَقـّة ، وتغلب على الجزيرة الخضراء ، واستولى اخوه ادريس على طنجة وهي حصن للمأمون وراء البحر .

ثم ثار اهل قرطبة عـلى المأمون واصحابه البربر المستبدين بالاحكام سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) فخرج الخليفة الى اشبيليـة ومنها الى شريش . وبايع القرطبيون عبد الرحمن الخامس اخا المهدي ، وتلقب بالمستظهر ، ولكنه لم يملك سوى سبعة واربعين يوماً حتى قتله جماعة من الشعب ، فخلفه محمد الثالث المستكفي ابن عبد الرحمن بن عبيـد الله ابن الخليفة الاموي عبـد الرحمن الناصر .

ولم يلبث البرابرة ان تخلوا عن المأمون بن حمود ، وبايعوا ابن اخيه المعتلي سنة ٤١٥ ه ، فزحف الى عمه واعتقله ، وجاء به الى مالَقّة .

ثم خلع اهل قرطبة المستكفي سنة ٤١٦ ه بعد ستة عشر شهراً من ولايته ، وجددوا بيعة المعتلي فاستعمل عليهم ابن عَطّاف ، وهرب المستكفي الى الثغر ومات هناك .

وانتقض القرطبيون سنة ٤١٧ ه (١٠٢٦ م) على المعتلي وصرفوا عامله عنهم ، وبايع الوزير ابو الحزم جَهْوَرُ عميد جماعتهم لهشام بن محمد اخي المرتضى ، وكان بلاردة في الثغر عند ابن هود . فلما انتهى اليه خبر البيعة انتقل الى البوَنت سنة ٤١٨ه ، وتلقب بالمعتدّ بالله ، واقام متردداً في الثغر نحو ثلاث سنوات ، حتى اشتدت الفتن بقرطبة بين رؤساء الطوائف ، فاتفقوا على استدعائه ، فجاء العاصمة آخر سنة ٤٢٠ ه ، فأقام بها حتى خلعه الجند سنة ٤٢٢ ه (١٠٣٠ م) ففر الى لاردة ، ومات بها سنة ٤٢٨ ه فانقطعت به الدولة الاموية .

واستبد بالحكم بعده في قرطبة العميد ابن جهور ، غير ان المعتلي بقي يردد العساكر لحصارهم الى ان اسلمت له الحصون والمدائن ، فعاد الامر اليه حتى قُتـل سنة ٤٢٦ ه (١٠٣٤ م) وهو يحارب القاضي محمد بن عبّاد الثائر باشبيلية ، فذهبت بموته

سلطة الدولة الحمودية العلويّة عن قرطبة ، وقامت حكومة الجماعة الأرستقراطية ، وعلى رأسها ابو الحزم جهور بن محمد ابن جهور من ملوك الطوائف .

ابن شهيد والمؤتمن

فهذه الفتنة العمياء التي تقاذفت الأندلس طوال خمس وعشرين سنة ، حتى افضت الى تقطيع اوصالها ، لم يبلغ الينا خلالها من اخبار ابي عامر بن شهيد سوى نُبَذ متفرقة لا يتألف منها بحث متساوق في حياته ، فرأينا ان نسدّ ثلماتها بما نستطيع استخلاصه من شعره ونثره مستضيئين بمعالم التقلبات السياسية التي مرت به بعد وفاة الناصر بن ابي عامر سنة ٣٩٩ هـ ، فان رسائله الى عبد العزيز المؤتمن بن الناصر تدلنا على انه لبث في قرطبة لا يبرحها ، مع ما نال اولياء نعمته من غِيَر الدهر ، فانزعجوا عن دار ملكهم ، وتفرقوا في البلاد الأندلسية ، فذهب المؤتمن الى الجهة الشرقية من بلنسية وتُدمير ، واستقر بها ، فلم يغفل ابو عامر عن مكاتبته ، والاشادة بافضال العامريين عليه وعلى ابيه . ويرجو منه ان يَصرِف له ضيعة كان وزير والده قد وعده بها ، فحالت الفتن دون انجاز وعده . ويضم الى الرسالة قصيدة طويلة في مدحه ، يذكر بها الفتنة ومقتل الناصر

وانتشار الفوضى بعده ، ويحرضه على استرجاع الامر ، وكشف الغمائم ، مستبشراً بانه انتضى عزيمة ماضية لاحت بوارق سعدها في انتصاره على السودان اذ ضربهم بالصقالبة البيض :

من فتنـــةٍ قد أسبِلت
ظُلُماتها بيـد المظالمْ

عمّهت لهـا احـــلامنا
وكأنها اضغاث حـــالم

وتضـــاءلت اجرامنـــا
فيهـــا بموبقةِ الجرائم

وتحوّلت فيهـــا الذُنا
بى الرأسَ ، وابنُ المجد راغم

وأدار كل صغيرِ قدر
المُنتهى أرْحِي العظائم[1]

فكأنـــا عُمْيٌ نُسا
قُ على العمى ، في ظلّ عاتم

---

١ الارحي : جمع الرحى .

obeikandl.com

حتى انتضى عبد العزيز
عزيمةً من صدر عازم

ضربَ الأعاجمَ سُودَها
بالصيد من بيضِ الأعاجمْ[1]

فاستجفلوا فكأنما
ضَرب الثعالبَ بالضراغم

رَغماً لمؤتمَنٍ رعى
فينا الحدايثَ والقدايمْ

بدأت أوائلُه وعا
دَ لكشفِ غاشيةِ الغياهم[2]

لا تتركَنْ صرمَ الزمانِ
على ظُبى تلك الصوارم

وارمِ الخطوب بمثلها
عزماً ، فأنت لها مُساهم

وتلقّى جواباً من المؤتمن يدعوه فيه الى الالتحاق به ، فرد

١ بالصيد : في الاصل بالسد .

٢ الغياهم : الظلمات .

obeikandl.com

عليه معتذراً لأنه لا يستطيع هجر قرطبة لتعلق قلبه بها :

« وقد كان أقلُّ حقوق مولاي ان أقف ببابـه ، وأُخيِّم بفِنائه ، وأهدي اليه الشكر غضّاً ، وأنثر عليه المدح نضّاً[1] . ولكني ممنوع ، وعن ارادتي مقموع ؛ يملكني سلطان قـدير ، وأمير ليس كمثله أمير : شيء غلب صبر الاتقياء واستولى على عزم الأنبياء ، وهو العشق : باطلٌ يلعب بالحق ليَتبين ضعفُ البشر ، وتلوحَ قـدرة مُصرِّف القَدَر . والذي أشكو منـه أغرب الغرائب ، وأعجب العجـائب : بثٌّ شاغل ، وبَرْحٌ قاتل ، وصبر بغيض ، ودمـع يفيض ، لعجوزٍ بخراء ، سَهكة درداء[2] ، تدعى قرْطبة :

عجوزٌ ، لَعَمْرُ الصبا ، فانيَهْ ،
لها في الحشا صورة الغانيَـــهْ

زنت بالرجـــال على سِنّها ،
فيا حبّذا هِيَ من زانيهْ ! »

فقد اقعدته قرطبة عن السفر الى ابن من رفعوا قدره وقدر ابيه ، فاجتزأ بتدبيج الرسائل ، وقرض اشعار الغزل والمدح ؛

---

١ نضاً : خالصاً .

٢ سهكة : اي ذات رائحة كريهة . درداء : ذهبت اسنانها .

ولعله لم يكن يتوقـع له النجـاح المأمول ، فلم يشأ ان يغرر بنفسه في الذهاب اليه ؛ والفتن في كُوَر الأندلس كالوباء العاصف تجتاح الكبير والصغير ، فآثر البقاء في بلده يستقبل خليفة ويودع خليفة ، ساعياً لان يتصل بكلٍّ منهم ، على امل ان يستعيد ما كان له من سابق العز في الدولة العامرية .

عند المستعين

ولكن ليس في اخباره وآثاره ما يدل على اتصاله بالمهدي قاتل مولاه الناصر . ومن الطبيعي الاّ يلقى حظوة عنـده ، فيبتعد عن القصر مدة خلافته الى ان يتم الامر للمستعين ، وتهدأ الفتنة الاولى في قرطبة بعد مقتل المهدي ، ومقتـل المؤيد هشام بن الحكم ، فنسمعه يمدح المستعين بقوله :

لعلّ نسيم الريح تأتي به الصَّبا
بنشر الخُزامى والكِباء المعبَّقِ[1]

كأنَّ عليهـا نفحةً عَبشميَّةً
أتت من جناب المستعين الموفَّقِ[2]

---

١ الكباء : عود البخور او ضرب منه .

٢ عبشمية : نسبة الى عبد شمس ابي الامويين .

فنلتَ الذي قد نلت ، اذ ليس للعلى
سواكَ ، كأنّ الدهر للناس مُنتَقِ

على ان خصومه وحساده من الأدباء والوزراء لم يحجموا عن النيل منه لدى الخليفة الاموي ؛ حتى اتهموه بشعر قاله ، فأنكروه عليه ، او شكّوا فيه ؛ وفي رسالة التوابع والزوابع يشير الى ذلك فيقول : « اما ابو محمد، فانتضى عليّ لسانه عند المستعين ، وساعدته زَرافة استهواها من الحاسدين ؛ وبلغني ذلك فأنشدته شعراً :

وبُلّغتُ اقواماً تجيش صدورهم
عليّ ، واني منهمُ فارغ الصدر

أصاخوا الى قولي ، فأسمعت مُعجزاً
وغاصوا على سرّي فأعياهمُ امري

فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شعرَه
وقال فريق : أَيمُنُ اللهِ لا ندري »

ويبدو ان حاله ساءت عند المستعين ، فأخذ يعاتبه على طريقة المتنبي في عتاب سيف الدولة بقصيدته « واحرّ قلباه » ؛ فاذا هو يشقى بحب الامير ، ويشكو الحساد ويفاخرهم ، ويحذره من الندم اذا رحل عنه الى قوم آخرين يكرمونه ، ويرعون حق العلى فيه .

والظاهر انه يلمح الى علي بن حمود الذي جاء الأندلس من المغرب لينتزع الخلافة من المروانيين :

لئن وردتْ سُهيلا غِبَّ ثالثةٍ
لَتَقْرَعَنَّ عليَّ السنَّ من ندمِ

في خلافة الحموديين

بيدَ انه لم ينعم عند الحموديين في إبّان دولتهم، فان سعايات الخصوم والحساد افضت به الى السجن ، إما في عهد علي بن حمود او في عهد اخيه القاسم . وله قصيدة اثبتها الفتح بن خاقان في كتابه « مطمح الانفس » يشكو بها ما لحقه من الضيم والمهانة عند الخليفة العلوي، منها قوله :

قريبٌ بمحتلّ الهوانِ بعيدُ
يجود ويشكو حُزنَهُ فيُجيدُ

نعى ضَرَّه عند الامام ، فيا له
عدوّاً ، لأبناء الكرام حسود[1]

ثم لم يلبث ان استقامت اموره في زمن المعتلي يحيى بن علي

---

[1] حسود : فاعل نعى.

(٤١٢ هـ) يدل على ذلك كثرة مدائحه له . ولم يطل حكم المعتلي في قرطبة ، فان عمه القاسم المأمون استعادها منه سنة ٤١٣ هـ ، كما مر بنا ، واكرهه على الفرار بسريره الى مالقة ؛ فكان ابن شهيد يكتب اليه بقصائد المدح والتهنئة ، منها قصيدة يهنئه فيها بانتصاره على السودان في وقعة اشبيلية :

اجريتَ للزّنج فوق النهر نهرَ دمٍ
حتى استحال سماءً جُلّلت شفقا

ولما ثار اهل قرطبة على المأمون وقتلوه ، وبايعوا الامير الاموي عبد الرحمن المستظهر ، وجد فيه ابو عامر فتى كريماً في الثالثة والعشرين من عمره يألفه ويأنس بأدبه ، ويرفع قدره كما رفع اقدار غيره من الوزراء بقايا بني مروان ، غير انه لم يملك سوى سبعة واربعين يوماً حتى قُتل ، وبويع بعده للمستكفي ؛ وليس لدينا ما يدل على اتصال الشاعر بالخليفة الجديد ، وانما نعلم انه لم ينقطع عن مكاتبة المعتلي ، وربما كان يكاتب المؤتمن ايضاً ؛ وله قصيدة يتظلم فيها من بني امية ، ويرجو الخير عند الهاشميين بني حمود ، وقد ازمع على الخروج من قرطبة لاحقاً بيحيى بن علي في مالقة ، يقول فيها :

لئن اخرجتني عنكمُ شرُّ عُصبةٍ
ففي الارض اخوانٌ عليّ أكارمُ

وإن هَشمت حقي اميَّةُ عندها
فهاتا على ظهر المحجَّةِ هاشم[1]

مرضته الاخيرة

ولا نحسب انه هجر قرطبة طويلاً ، لانه لم يكن يطيق الابتعاد عن ملاهيها ولذاتها ، فجميع اخباره واشعاره صادرة عنها ، وان لم يبلغ الينا منها ما يطلعنا على علاقته بالمعتدّ آخر الخلفاء الامويين ، ولا ما كان من امره بعد عودة الحكم الى المعتلي؛ وانما نعلم انه اعتل في آخر عمره ، فلزمه الداء بضع سنين حتى غلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ ه وذلك نتيجة انغماسه في حياة الراحة والترف ، واطلاقه العنان لشهوات النفس ، وادمانه مجالس الشراب ، واجهاده الفكر والاعصاب في النظم والتأليف . ولكنه لم ينقطع عن الحركة اصلاً ، فكان يمشي الى حاجته معتمداً على عصا او على انسان ، الى قبل وفاته بعشرين يوماً ، فانه صار يُنقل في المحفّة ، ولا يحتمل ان يُحرّك لعظيم الاوجاع ، مع شدة ضغط الانفاس ، وعدم الصبر حتى همّ بقتل نفسه ، وفي ذلك يقول :

---

١ هاتا : بمعنى هذه . تا اسم اشارة الى المؤنث ، وها للتنبيه .

obeikandl.com

أَنوح على نفسي وأَندب نُبلَها
اذا انا في الضَرّاء أَزمعتُ قتلَها

رضيتُ قضاء الله في كل حالة
عليّ واحكاماً تيقّنتُ عدلَها

اظلُّ قَعِيد الدار تَجنُبني العصا
على ضعف ساقٍ أوهن السقم رجلها

ومع ذلك لم يعطّل لسانه ، ولا انقطع عن قول الشعر ، فكان يراسل به اصدقاءه من الوزراء والادباء . وقد اوصى ان يُدفن بجنب صديقه ابي الوليد الزجّالي ، وان يُكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون . هذا قبر احمد بن عبد الملك بن شُهيد المذنب ، مات وهو يشهد ان لا اله الاّ الله ، وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، وان الجنة حق ، وان النار حق ، وان البعث حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور . مات في شهر كذا من عام كذا :

يا صاحِبي ، قُمْ ، فقد اطَلْنا
أنحنُ ، طولَ المدى ، هُجودُ ؟

فقال لي : لن نقوم منها
ما دام من فوقِنا الصعيدُ

تذكرُ كم ليلةٍ لهونا
في ظلِّها ، والزمان عيد؟

وكم سرورٍ همى علينا
سحابةً ثرَّةً تجود؟

كلٌّ ، كأنْ لم يكنْ ، تقضّى
وشؤمه حاضرٌ عتيد

حصَّله كاتبٌ حفيظٌ ،
وضمَّه صادقٌ شهيد

يا ويلنا إن تنكَّبتنا
رحمةُ مَن بطشُه شديد

يا ربِّ عفواً ، فأنت مولًى
قصَّر في امرِكَ العبيدُ»

وما زال كذلك حتى توفاه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الاولى من سنة ست وعشرين واربع مائة وهي السنة التي قُتل بها المعتلي ، وكان في الرابعة والاربعين من عمره . قال ابن بسام : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره ، من البكاء

والعويل ، وأنشد على قبره من المراثي جملة موفورة لطوائف كثيرة . »

لهو ومجون

لم تشغل السياسة ابن شُهيد ، على تقلبها في عصره وتقربه الى ذوي السلطان ، بقدر ما شغلته ملذات قرطبة وملاهيها ؛ فقد كان من اولئك الشبان الذين يتهافتون على ارتشاف عُسيلات الحياة لا يتورعون من مواقعة محرّماتها ، حفاظاً لدين ، او صيانة لكرامة . وتأتّى له من شرف المقام ، وبسطة العيش ما جعله يطلق يديه في البذل والعطاء لاجتناء الطيبات ، واصطفاء الاحباب والخلان ، حتى شارف الاملاق ، واتاح لاعدائه وحسّاده ان يصلتوا عليه ألسنة حداداً لدى الملوك والامراء ؛ فألقاه ابن حمود في غيابة السجن ، وكان مجونه من اسباب سخطه عليه ؛ واراد ان يعتذر فلم يستطع انكار ما نُسب اليه :

وما ضرّه الا مُزاحٌ ورِقّةٌ
ثَنَتْهُ سفيهَ الذِكر وهو رشيدُ

فان طال ذكري بالمُجون فانني
شقيٌّ بمظلوم الكلام ، سعيد

وهل كنت في العشاق اوّلَ عاقل
هوت بحِجاه أعينٌ وخدود؟

وان طال ذكري بالمجون فإنها
عظائمُ لم يَصبِرْ لهنّ جليدُ!

وعلمنا انه بلغ رتبة الوزارة ، ولم يبلغ منزلة الكتابة في الديوان ؛ وزعم ان ثقل سمعه اخّره عنها ، وما كان ينبغي له ان ينسى فتكه وعبثه ، فان الملوك يؤثرون في الكاتب العقل والرصانة على الهزل والمجون ؛ مع انه في كلامه على الجاحظ اضاف اليه خفة العقل ، وقال انها قعدت به عن الكتابة ، كما قعد به عنها جحوظ عينيه :

« وربما انكر منكر قولنا في شرط جمع ادوات الكتابة فقال : واي اداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : اولُ ادوات الكاتبِ العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدَلياً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهلٍ[1] اكثر من نسبته الى الجاحظ . »

ورأيناه يأبى الخروج من قرطبة للقاء مولاه المؤتمن في مالقة ، مع حبه له ، لانه لم يطق فراق تلك العجوز الزانية ، التي تقود اليه ضروب الملذات .

---

١ سهل : اي سهل بن هارون .

قال ابن بسام في صفة اخلاقه :

« منهم ابو عامر بن شهيد فتى الطوائف ، كان بقرطبة ، في رقته وبراعته وظرفه ، خليعها المنهمك في بطالته ، واعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، واهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه . »

وقال فيه ابن حيّان :

« غلبت عليه البطالة ، فلم يحفل في آثارها[1] بضياع دين ولا مروءة ، فحط في هواه شديداً ، حتى اسقط شرفه ، ووهّم نفسه راضياً في ذلك عا يلذه ، فلم يقصّر عن مصيبة ، ولا ارتكاب قبيحة . »

وكانت النساء المحصنات تتجنب لقاءه ، وتبتعد عنه ، اذا رأته ، خشاة ان يتعرض لهن بشعره فيفضحهن به . وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه اكثر نهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان ، في جماعة من اخوانه ، فاذا امرأة من اعيان اهل قرطبة ، اطلت تتوارى بين جواريها ، وأمامها طفلها يرافقها الى المسجد . فلما وقعت عينها على ابي عامر ، ارتدّت مولية عنه ، وكرهت ان تمر به ، ولكنها لم تسلم من معرّة لسانه ، فقد رآها مقبلة مدبرة ، فراقه منظرها على الحالين ، فقال فيها شعراً فضحها به وشهّرها ، على غير ذنب منها .

---

١ في آثارها : لعلها في ايثارها .

وذكر الفتح بن خاقان علته في آخر حياته ، فرجا ان يكون له فيها كفّارة عن ذنوبه ، قال :

« واحسب ان الله اراد بها تمحيصه ، واطلاقه من ذنب كان قنيصه ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً ! »

ولم يكن ابن شهيد في مرضه الاخير قد بلغ السن التي تضعف بها شهوات النفس ، ونزوات اهوائها ، ولا سيما من كان مثله حِلْس لهو ، وتِبْع نساء ، فظل ، على تحكم الفالج بجثمانه ، وشعوره العميق بآثامه ، يحن الى الماضي البهيج ، ويشتاق العيون السواحر ، فيقول ، حين همَّ بقتل نفسه تخلصاً من الاوجاع :

عليكم سلام من فتًى عضّه الردى
ولم ينسَ عيناً اثبتت فيه نَبلَها

ويقول ايضاً في علته :

وليس عجيباً ان تدانت منيتي،
يصدّق فيها أوّلي امرَ آخري

ولكن عجيباً أنّ بين جوانحي
هوًى كشَرار الجمرة المتطاير

يحرّكني والموت يحفِز مهجتي،
ويهاجني، والنفس عند حناجري

obeikandi.com

ولم يزل قلبه يخفق للحب واللهو ، وتعتاده صبوة الشباب ، حتى مات .

اصحابه وأهل مودته

هؤلاء الاصحاب منهم الامراء ، ومنهم الوزراء ، ومنهم الادباء ، جمعتهم قصور قرطبة ودواوينها ، ومجالس سياستها وأنسها ، وأيام نعيمها وبؤسها ؛ فكان ابو عامر نقطة الدائرة الادبية في عصره ، يرفع الامراء قدره ، ويخطب الوزراء صداقته ، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته ، واستحثاث قريحته. فأخلص الود لمن وجد فيه المودة والاخلاص ، فلم ينسَ العامريين في نكبتهم ، ولا كفر فضلهم بعد زوال نعمتهم ، وافراط الامويين عليهم ، بل لبث يشيد بذكرهم في شعره ورسائله ، ويتمنى رجوع دولتهم ، ويحض المؤتمن على الثورة ، وطلب الملك المفقود. وكذلك كان شأنه مع المعتلي يحيى بن علي بعد استيلاء عمه المأمون على قرطبة . وأحب من الأمويين المستظهر بالله ، وكان اديباً شاعراً يعتز به الأدباء ويأنسون بمجلسه ، فحظي عنده مدة خلافته القصيرة . واخباره مع الحاجب ابي عامر بن المظفر مأثورة ، كما يقول ابن حيّان ، فان هذا الامير لم يهجر قرطبة بعد انقضاء الدولة العامرية ، فمضت له بها عيشة راضية ؛ يجتمع اهل الأدب في قصره ، ويشاركونه في لهوه ،

ويخلدون بأقوالهم آثاره ، ولا سيما ابو عامر بن شهيد فانه كان ألهجهم بذكره ، وأكثرهم اختلافاً اليه . فمن جملة اخباره معه ما رواه ابن حيان من انه شاهدهم ليلة في مجلسه ، وطُفَيلة صغيرة عجيبة الخَلق كانت تسقيهم ، تسمى اسماء ، عجبوا من مكابدتها السهر معهم على صغر سنها ، وحسن قيامها بخدمتهم ، فسأل ابن المظفر ابا عامر بن شهيد ان يصفها ، فقال :

أَفدي أُسَيماء من نديمٍ
ملازمٍ للكؤوس ، راتبْ

قد عجبوا في السهاد منها ،
وهي ، لَعَمْري ، من العجائب

قالوا : تجافى الرقاد عنها
فقلت : لا ترقد الكواكب

ولم يزل على اتصال به ، حتى استوحش ابن المظفر من هشام المُعتد بالله . وخشي ان يطلبه بذنب نُسب اليه ، فخرج من قرطبة هارباً ، ثم التجأ الى حصن على نهرها ، فأجاره صاحبه حرزة اليَصدرانيّ ، فأقام عنده في كمد وغصة الى ان مات .

وأصحابه الوزراء كثرٌ ، وفيهم طائفة من الادباء يمدحونه ويمدحهم ، ويساجلونه ويساجلهم ، امثال الوزير الكاتب ابي

المظفرة عبد الوهاب بن حزم ، « وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح ومَقيل . » على حد تعبير الفتح بن خاقان . ولم تكن صلته به دون صلته بابن عمه الوزير الأديب ، والعالم الفقيه أبي محمد بن حزم صاحب كتاب الفِصَل في الملل والأهواء والنِحَل ، وكتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وصفاته . وكانا يتقارضان الشعر ، ويتهاديان المدح ؛ فمن قول أبي عامر فيه :

وأنتَ ابنَ حزمٍ مُنعشٌ من عِثارها
إذا ما شَرِقنا بالجدود العواثرِ

وكتب اليه في علّته يقول :

فمَن مبلغٌ عني ابنَ حزم ، وكان لي
يداً في مُلمّاتي وعند مَضايقي :

عليك سلام الله ، اني مفارقٌ ،
وحَسبُك زاداً من حبيبٍ مفارق[1]

فلا تنسَ تأبيني ، اذا ما فقدتني ،
وتذكارَ أيامي ، وفضل خلائقي

---

١ وحسبك زاداً : اي وحسبك السلام زاداً .

فأجابه ابن حزم بأبيات منها قوله :

أبا عامرٍ ، ناديتَ خِـــلا مُصافياً ،
يُفدّيك من دُهم الخطوب الطوارق

وألفَيتَ قلباً مُخلِصاً لك ، مُمحّضاً
بودّك ، موصولَ العُرى والعلائقِ

فان تنجُ ، قلتُ : الحمدُ لله مُخلِصاً ،
فمن أعظم النُعمى بقاءُ المُصادِق

وكان صديقه الوزير أبو مروان بن الجزيري يساجله في القريض معترفاً بفضله مع أنه كان يومئذ في نحو الثانية عشرة من عمره ، لأن المظفر عقد له على الشرطة وهو دون العاشرة ، وكان أبو مروان من وزراء الدولة . ثم غضب المظفر على الجزيري ، فسجنه في المُطبَقِ ومات فيه مخنوقاً سنة ٣٩٤ ه (١٠٠٣ م) وابن شهيد في الثانية عشرة . فمساجلة أبي مروان له في الشعر ، وهو صبي ، تدل على نبوغه المبكر . فقد كتب اليه مرة يسأله عن الورد :

قـــل للوزير الذي بانت فضائلُهُ ،
وقـــام فينا مَقامَ الغيث نائلُهُ :

أواخرُ الورد ، اذ تجنيه مُلتقطاً ،
أزكى وأعطَرُ نَشراً ، أم أوائلُه ؟

فأجابه :

يا سيداً ، أرجت طيباً شمائلهُ ،
وشاكهت شعرَه حُسناً رسائلُهُ

وسائلاً لي عما ليس يجهله ،
ولا الذي كُلِّفَ التفصيلَ جاهلُه

الوردُ عهداً ونشراً صنوُ عهدِك ، لا
تُنسي أواخِرَه طيباً أوائلُه

ووصلُه ، في كلا الحالين ، مُفترَضٌ ،
سِيّان قاطِعُهُ جهلاً ، وواصِلُه

ورثى من أصدقائه الوزراء أبا عبيدة حسان بن مالك ، وزير الخليفة المستظهر أيام الفتنة ، فقال فيه :

أفي كل عام مصرعٌ لعظيمِ ؟
أصاب المنايا حادثي وقديمي !

ورثى من القضاة صَفِيّه أبا حاتم بن ذكوان صاحب المظالم في زمن المظفر وكان قسيم نفسه ، ونسيم أنسه ، كما يقول الفتح في مطمح الأنفس ، فقال :

يسيرُ به النَعشُ الأغرُّ وحوله
أباعِدُ راحوا للمصاب أقاربا

عليـه حفيفٌ للملائك أقبلت
تصافح شيخاً ذاكرَ الله تائبـا

وقضى أيامه الأخيرة ، بعدما استبد عليه الفالج ، وبات الموت يلاحظه ، في نظم الأشعار وارسالها الى أصحابه ؛ قال ابن بسّام : وبلغني أن آخر شعر قاله يودع اخوانه هذه الأبيات :

أستودع الله اخـواني وعِشرَتهُمْ
وكلَّ خِرْقٍ الى العَلياء سَبّاقِ[1]

وفِتيةٌ كنجوم القذف نَيّرُهُمْ
يَهدي ، وصائبُهم يُودي باحراقِ[2]

وكَوكَباً لِيَ منهم كان مَغربُهُ
قلبي ، ومَشرِقُه ما بين أطواقي

اللهُ يعلم أني مـا أفارقه ،
إلا وفي الصدر مني حَرُّ مشتاقِ

كنّا أليفَينِ خان الدهرُ أُلفَتَنا ،
وأيُّ حُرٍّ على صرفِ الردى باقِ؟

---

١ الخرق : الفتى السخي الظريف ، والكريم الخليقة .
٢ نجوم القذف : اي الشهب التي قذفت بها شياطين الجن ، فاحرقتهم ، كما جاء في القرآن .

فإن أعِشْ ، فلعلَّ الدهرَ يجمعنا ،
وان أمُتْ ، فسَيسقيه كذا الساقي

لا ضَيَّعَ اللهُ إلاّ من يُضيِّعُه ،
ومن تخلّقَ فيه غيرَ أخلاقي!

قد كان بَرْدي، اذا ما مَسّني كَلَفٌ ،
لا يثلِمُ الحبُّ آدابي وأعراقي

حتى رمتنا صروف الدهر عن كثبٍ ،
ففرّقتنا ، وهل من صَرفِه واقِ ؟

إني لأرمُقُه ، والموت يَضغَطُني ،
فأقتضي فُرجةً مُرتَدَّ أرماقي

وكانت وصيته قبل وفاته أن يُدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجّالي .

خصومه وحساده

بلغ ابن شهيد ، في زمانه ، منزلة أدبية بشعره ونثره رفعت قدره ، في قصور الأمراء ، على أقدار أقرانه ، فأوت اليه جماعة المعجبين به تَلتُفُّ لِفَّه وتشيد بذكره، فناله ما ينال الأدباء من الزهو والاعتداد بالنفس، فتنكر له جماعة من أبناء طبقته وأهل

حرفته ، وحسدوه على نعمة من خفيض العيش يتقلب فيها ، وهبة من توقد الذهن يشتمل عليها : نعمة الأرض ، وهبة السماء. فراحوا يسعون به لدى الملوك ، وينتقصون شعره وأدبه وأخلاقه ، حتى حبسه ابن حمود ، وأعرض عنه المستعين . وقد مرّ بنا كيف اعتذر من مجونه ، وذاد عن شعره ، وأزرى على حاسديه . ويذكر في رسالة التوابع والزوابع ثلاثة أشخاص لا يملّون من الطعن عليه ، وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر . فأبو محمد انتضى عليه لسانه عند المستعين ، واتهم شعره وشك فيه . ولا نعلم من الأدباء من يكنى بهذا الاسم ، وله صلة به ، غير أبي محمد بن حزم ، وكان صديقه كما ذكرنا ، وليس في أخبارهما ما يدل على تخاصمهما في بعض الأوقات ، وانما كان بينهما مكاتبات ومداعبات ، على ما أنبأنا ابن خلكان . ومن معاصريه القاضي أبو محمد عبد الله المعروف بابن الفرضي ويكنى أيضاً أبا الوليد ؛ تولى القضاء في دولة المهدي ، وقتله البربر يوم استيلاء المستعين على قرطبة ، سنة اربعمائة للهجرة ، بحسب رواية الذخيرة ؛ غير أن نفح الطيب يجعل مقتله في سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٣ م) فيكون قد أدرك خلافة المستعين الأولى وهو رجل ذو حظ من الشعر والأدب ، ولكن لم تعرف له علاقة صداقة أو خصومة بأبي عامر بن شهيد، فبالأولى أن يكون

المقصود أبا محمد بن حزم لسلاطة لسانه ، وقد يحدث أمثال هذه الهنات بين الأدباء ، وان كانوا أصدقاء .

وليس في التعريف بأبي القاسم مجال للاجتهاد والتخمين ، كما هي الحال في أبي محمد ، فقد صرح ابن شهيد باسمه في رسالته اذ قال : « وأما أبو القاسم الافليلي ، فمكانه من نفسي مكين ، وحبه بفؤادي دخيل ؛ على أنه حامل علي ، ومنتسب الي . » وأبو القاسم هذا من أئمة النحو واللغة بالأندلس ، كثير الحسد والغرور ، يجادل على الخطإ ، ويتشبث به معانداً . وخصه أبو عامر بمكان من رسالته في عالم الجن ، لينتقده وينتقم منه ، فأقام له تابعاً سماه أنفَ الناقة ، وأخذ يناظره ويسمعه من كلامه حتى أخزاه ، فقال : « وعلت أنفَ الناقة كآبةٌ ، وظهرت عليه مهابة ، واختلط كلامه ، وبدا منه ساعتئذ بَوادٍ في خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه من أجلها من نظر . »

على أن الافليلي ، وان تحامل على أبي عامر ، لم يكن ينكر عليه أدبه ، وبصره بمذاهب الكلام ، فقد عرض عليه يوماً بعض المتأدبين شعراً له استعمل فيه وحشيّ اللفظ ، فقال له : « تنكّبْ عن هذا الكلام . » فقال : « ان أبا عامر يستعمله . » فقال : « يضعه في موضعه ، وهو أدرب منك في استعماله . »

وأما أبو بكر فشأنه شأن أبي محمد في الالتباس والغموض، فقد يكون أبا بكر بن حزم، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أبا عامر صدّر رسالة التوابع والزوابع بمخاطبته، وذكر أنه حين سمع كلامه تعجب وقال: «كيف أوتي الحكم صبياً، وهز بجذع النخلة فاسّاقط عليه رُطَباً جَنيّاً؟!» وقد يكون أبا بكر عُبَادةَ بن ماء السماء، وهو من مشاهير شعراء قرطبة ووشّاحيها، لحق الدولة العامرية والدولة الحمودية، ويقول ابن شهيد انه توفي بمالقة سنة ٤١٩ هـ. وقد يكون الكاتب أبا بكر المعروف بأشكمياط، وهو من الذين نقدوا أبا عامر وعابوه باستباحة كنوز غيره. روى ابن بسام أنه عُرضت عليه فصول من كلامه، فقال: «فِقَرٌ حسان الا أنه عثر عليها.» فوصل خبره الى ابن شهيد، فكتب اليه بما ملخصه: «ما أغيرك أبا بكر، على نظم ونثر، لو إليك كان العلم، أو بكفك كان الفهم... عرضتُ عليك الدر منظوماً، فقلتَ: نعمَ ما صنعتَ لو اخترعتَ، وما أحسن ما أطلعتَ لو ابتدعت، مُعرِّضاً بالتقصص[1]، ومشيراً الى التلصص... لأقطعنّ حبالك هاجراً، ولأتركنّ ليلك ساهراً!»

وله رسالة الى أبي قاسم الافليلي يشكو فيها تغيّره عليه، ويعزو ذلك الى جعفر بن محمد بن فتح، فيقول: «فبحثت عمن

---

١ التقصص: التتبع.

طرأ عليك من الأنذال ، وحلّ بساحتك من الأعلاج ، فقيل لي : ابن فتح ؛ فأنعمتُ البحث ، وأعملت لطائف الكشف ، حتى صح عندي أنه كدّر صفوك عليّ ، وغيّر شِرْبك[1] لديّ ، فقلت من هاهنا أتينا ، ومن هذه القوس اللئيمة رُمينا ، وقصصي مع هذا العلج طويل . »

وكان ابن فتح ينتسب الى بني هاشم ، فتقرب الى يحيى بن علي المعتلي ، وقدّم اليه صديقه أبا القاسم الافليلي ، ورفع قدره في حضرته . والظاهر أنه كان يكره أبا عامر ، فاستطاع أن يبعد الافليلي عنه بما له عليه من الدالة والتأثير . قال ابن شهيد في رسالته : « ولولا أنه منتسب الى آل هاشم ، الى عصابة أقلّتني كرمهم ، وأظلتني نِعمهم ، ومُسْنَدٌ ، على العلاّت ، من أبي جعفر[2] الى وزير كان لي وَزَراً[3] ، رقرق شرابي ، وأخصب به جنابي ، لأدرتُ بداره دائرة السوء ، وسريتُ اليها في لُمّة[4] من صعاليك الأحرار ، وصميم الرجال ، فأحرقتها على نازلها ، وجعلت عاليها سافلها ... فاللهَ اللهَ في قبول هذا القرد والالتباس

---

١ الشرب بالكسر : الماء .

٢ ابو جعفر : اي ابو جعفر اللمائي ، كان وزيراً كاتباً لعلي بن حمود .

٣ وزراً : موئلاً .

٤ اللمة : الجماعة .

به ، فانه قُدَارٌ[1] مَن لزمه ، وهو والفَرَضيُّ رضيعا لِبان ، وفرسا رهان . »

والفرضي الذي يذكره هنا ، ويجعله صنواً لابن فتح في عدائه وسوء أخلاقه ، هو الوزير الكاتب خالد بن يزيد الكيميائي أبو عبد الله الفَرَضي . وكان الاشتغال بالكيمياء يومئذ غير محمود عندهم ، ولا يسلم صاحبها من التهمة بدينه وخُلقه ، ويخبرنا ابن شهيد في بعض رسائله أن لدى الفرضي حشائش استفادها من كيميائه يستعملها في الشر والفتك . ويقول انه قصده مرة على غير موعد ، فانكشف له ما يخفي من أمر اشتغاله بهذه الصناعة ، فأطلع عليه أحد ثقاته ، فأذاعه بين الناس ، فحقد عليه الفرضي ، وصار يسعى الى ضرره . قال :

« وقصدته يوماً ، على جهل بتلك الخليقة منه ، لأستريح اليه ، وأُلقيَ من شيئي عليه ، فألفيته قد خلا بابه ، وغاب بوابه ، فولجت ، فثار اليَّ صبيٌّ غرير أصبتُه هنالك ، قائلا لي : « طال انتظارنا لك ! » وتقدمني ، وسرت ، حتى انتهيتُ الى دار ذات أجوان،[2] قد غشيها دُخان كقِطَع العَنان[3]، تَعبَق منها

---

١ قدار : عاقر ناقة صالح ، كان شؤماً على قبيلته ثمود .

٢ الاجوان : جمع جون كأرطاب جمع رطب بضم ففتح ، مفردها جونة ، وأصلها الهمز ، وهي سفط مغشى بجلد ، ظرف لطيب العطار ، ويطلق على الخابية .

٣ العنان بالفتح : السحاب .

صُنّانٌ من زرنيخ وكبريت ، وزنجفور[1] وأنزروت[2] ، فتذكرت « يوم تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ يغشى الناس ، هذا عذابٌ أليمٌ . » فاستشعرتُ الشرَّ ، وأردتُ الفرَّ ، ثم التفتُّ ، فاذا أنا بأكداس جمر ، وآلات تبر ، وأشخاص سود وصُفر . ثم أفضيتُ الى بيت فيه عِدَّة أشباح ، كأنها قُبّاض الأرواح ، غرابيب[3] ، بأيديهم كلاليب ، رزادق[4] ، قد تقلدت مطارق ؛ فلما رأوني صاحوا : « فضحكم الواغل[5] ، فامْحَقوه من عاجل ! » فلما نظرت الى المَنيّة ، وخشيتُ فصل القضيّة ، ضحكتُ اليهم وقلت : « تخطّتكم النعمة ، ولا هُديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تَعجَلون ، ولا تدرون من تُريدون ؟ » قالوا : « ومن أنت ؟ » قلت : « من أخذ الطَّلْق[6] ، فسحَقه بالمِدَق ، وشق بيد الذكاء ، عن زهرة الأشياء ، فبشّر الآباء بالأبناء . » فقالوا :

---

١ الزنجفور : المعروف انه يقال له الزنجفر ، وهو معدن متفتت بصاص يعمل منه الحبر الاحمر ، ويتبخر به لنوع من القمل يتشبث بالجلد .

٢ الأنزروت : صمغ فارسي ، ويقال له ايضا عنزروت .

٣ الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الاسود اللون ، والشيخ يسود شيبه بالخضاب .

٤ الرزادق : صفوف الناس .

٥ الواغل : الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم .

٦ الطلق : الشبرم ، وهو نبات له حب كالعدس ، وأصل غليظ ملآن لبناً ، يسهل البطن ، واستعمال لبنه خطر . وانما يستعمل أصله مصلحاً ، بان ينقع بالحليب ويخلط بغيره من المقاقير ، ويصنع منه دواء . وشجر ذو شوك يقال انه ينفع من الوباء .

« بنار أم بماء ؟ » قلت : « بهما جميعاً ، وبهواء . » فأومضوا[1] اليّ ضاحكين ، واستقبلوني معتذرين ، وقالوا : « كِدتَ ، واللهِ ، أن تُلتهم ، وتكون السواد[2] المُخترم[3] ! » قلت : « وأين أبو عبد الله ؟ » قالوا : « انفرد يُروّق ماء بَيض ، ويصفّق دم حَيض ، وغرضه استخراج دهن الحجر الكريم[4]. » فقلت : « نفسٌ[5] حديثٌ أو قديم ؟ » فنادوا : « أواه ، أواه ! على الخبير سقطتم ! » ثم تلطفتُ وخرجت ، تطير بي رجلاي ، وقد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقذني من يدَي منيتي بلطفه . ووصفت لمن استوثقتُه ذلك بعد أن استكتمته ، فجاس[6] وخاس[7] ، وكأني أودعتُ سري ريحاً . فاضطغن ذلك عليّ ، وأكّد ذلك معاملةٌ عاملني بها أيام حرب المدينة ، وكانت حبالها ، اذ ذاك ، منينة[8] ، أعقبَته وقعَ السوط على رأسه ، وعضّ الحِجل[9] على

١ اومضوا : اشاروا .

٢ السواد : الشخص .

٣ المخترم : من اخذته المنية .

٤ الحجر الكريم : اي الحجر الفلسفي .

٥ النفس : الحيض ، من نفست المرأة كسمع ، اي حاضت .

٦ جاس : طلب الشيء بالاستقصاء ، وتردد خلال الدور والبيوت .

٧ خاس : غدر وخان ، واخلف بالعهد .

٨ منينة : مقطوعة .

٩ الحجل بالكسر : القيد .

ساقه ، وكان الأمير بها أبو أيوب[1] بن المرتضى رضي الله عنهما !»

وهذه الرسالة كتب بها أبو عامر الى صديقه الموفق ، أبي الجيش مجاهد أمير دانية ، وذكر فيها أن وطأة الفرضي اشتدت أيام المستظهر ، فحاول الايقاع به ، فنحله شعراً في هجائه ، فوقاه الله شره ، وردّ عنه أذاه ، ولم تنجح مكيدته عند الخليفة لأن ابن شهيد كان مقرّباً اليه . ويلتمس من الموفق ألاّ يصغي الى وشاياته وأكاذيبه ، فيقول :

« فكيف يصغي الموفق ، أيده الله ، الى رجل هذه صفته ، وبيني وبينه ما قد شرحته وأوضحته ؟ فليُجرني من قبول حديث هذا الخبيث فيّ ، واصغائه الى كذبه عليّ ، وليُجِرْ نفسه من عاديته ، وينظُرْ من وجه فائدته ، يجدْه أشقى الأشقياء ، وأضعف الضعفاء ! »

ومن منافسيه الأدباء أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصَقلبي صاحب المَرِيّة ، وكاتبُ ديوانه ؛ وكان كثير الصلف والتيه ، شديد الاعجاب بنفسه ؛ فلما دخل زهير قرطبة زمن الفتنة أظهر أبو جعفر من الكبر وسوء الخلق ما كرّه الناس به . قال ابن بسام : « وحسبك من جهله وعُجبه أنْ عامَلَ

---

[1] ابو ايوب : الخليفة المستعين .

أهلَ قرطبة الذين فيهم منتماه ، وهم بقيّة الناس ، أيام دخله مع زهير صاحبه ، بأسوإ ما عنده ، فحجب كبيرهم أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر ، وما عُرف عبّاس أبوه الا بخدمة ابن عمه ، وتنقّصَ أديبهم أبا عامر بن شهيد ولم يكن يُحسن مستملياً له . »

ويحدثنا ابن شهيد عما جرى له معه فيقول :

« لما قدم زهير الصقلبي ، فتى بني عامر ، حضرة قرطبة من المريّة ، وجّه أبو جعفر بنُ عبّاس وزيرُه عن لُمّةٍ من أصحابنا ، منهم ابن بُرد ، وأبو بكر المرواني ، وابن الحنّاط ، والطُبنيّ ، فسألهم عني ، وقال : « وجّهوا عنه . » فوافاني رسوله مع دابّة له بسرج مُحلّى[1] ثقيل ؛ فسرت اليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً اليّ ، حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً لذيلٍ لم يُرَ أحدٌ سحَبَه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فردّ ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نُعَرة[2] لا تخرج إلاّ بسعوط الكلام ، ولا تراض إلاّ بمُستحصِد[3]

---

١ محلى : في الاصل جلي ، والتصحيح للجنة المصرية عن نفح الطيب .

٢ النعرة : الخيلاء والكبر .

٣ المستحصد : الحبل المستحكم .

النظام[1]. فرأيت أصحابي يُصيخون الى ترنّمه، فسألتهم عن ذلك، فقال لي الخاطيُّ، وكان كثيرَ الإنحاء عليّ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء، اليّ: «ان الوزير حضره قسيمٌ من شعره، وهو يسألنا إجازته.» فعلمت أني المراد. فاستنشدته، فأنشده، وهو:

مرَضُ الجفونِ، ولثغةٌ في المَنطِقِ

فقلت لمن حضر: «لا تُجهدوا أنفسَكم، فلستم المُرادَ.»
فأخذت القلم وكتبت بديهة:

مرَضُ الجفونِ، ولثغةٌ في المنطِقِ،
سيّانِ، جرّا عِشقَ من لم يَعشَقِ

مَن لي بألثغَ لا يزال حديثُه
يُذكي، على الأكبادِ، جمرةَ مُحرِقِ

يُنبي، فينبو في الكلام لسانُه،
فكأنه من خمر عينيه سُقِي

لا يُنعِشُ الألفاظَ من عثَراتها
ولوَ انها كُتِبتْ له في مُهرَقِ[2]

---

١ النظام: اي تأليف الكلام، من نظم اللؤلؤ.

٢ المهرق: الصحيفة.

obeikandi.com

ثم قمت عنهم ، فلم ألبث أن وردوا عليّ ، وأخبروا أن أبا جعفر لم يرضَ ما جئنا به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على حِتاره[1] . وذكروا أن إدريسَ هجاه فأفحش ، فلم أستحسِن الافحاش ، فقلت فيه معرّضاً ، اذ التعريض من محاسن القول . »

والأبيات فيها فحش كثير ، فما يحسن اثباتها ؛ قال ابن بسام : « وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر ، اذا سمى هذا تعريضاً ؟ ! ولولا أن الحديث شجون ، والتتابع فيه جنون ، والكلام ، اذا لان قيادُه ، سهُل اطرادُه ، واذا قرب بعضُه من بعض ، لم يُفرّق فيه بين سماء وأرض ، لما استجَزتُ أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد معرِضُه ، البعيد من السداد غرضُه ، وقد يطغى القلم ، وتجمح الكَلِم . »

ونعلم من حديث أبي عامر عن الوزير ابن عبّاس أن الخنّاطي كان كثير الإنحاء عليه ، جالباً إليه في المحافل ما يسوء الأولياء . وصاحبه هذا هو أبو عبد الله بن الخنّاط الضرير ، أحد زعماء النظم والنثر في عصره . قال ابن بسام : « وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه ، وانحياشه — كان — الى

---

١ الحتار : حرف الجفن ، وحلقة الدبر .

جنابه ، مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء . »

ولدينا من هذه المناقضات واحدة للحنّاطي يصف بها زهو أبي عامر وخيلاءه واعتداده بنفسه ، عائباً عليه اسهابه وتطويله ، قال :

« الاسهابُ كُلفةٌ ، والايجاز حِكمة ، وخواطرُ الألباب سهام ، يُصاب بها خواطر الكلام ؛ وأخونا أبو عامر يُسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عِطفه ، متخيّلاً أنه قد أحرز السَبَق في الآداب ، وأُوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء . »

ويقول في مكان آخر داعياً اياه الى معارضته ، متوقعاً عجزه عن اللحاق به :

« فأنشدْها أخاك الشُهيديّ ، وكلّفْه على العَروض والقافية معارضَتها ، وحمّله على اللين والشدة مقارضتها ، فستوقد بقلبه قَبَساً ، وتضرب في أُذنه جَرَساً ، فيتبيّنُ به حظّه ، ويعرف لغيره فضله . »

فهؤلاء الخصوم والحساد أقضّوا مضجع ابن شهيد ، وكدّروا صفو حياته السياسية والاجتماعية ، وأقلقوا حياته الأدبية باعتراضاتهم ومناقضاتهم ، فشغلوا جانباً من شعره ورسائله ، وحملوه على اصطناع النقد ، وتصنيف رسالة التوابع والزوابع .

أدب ابن شهيد

الشاعر

الشعر في بيت أبي عامر عريق النجار ، متلاحق الآثار ، فأبوه عبد الملك شاعر ، وكذلك جده مروان ، وجد أبيه أحمد ابن عبد الملك ، ثم عمه وأخوه شاعران . وهو أجودهم شاعرية ، وأخصبهم قريحة ، وأطولهم نفَساً ، وأوسعهم شهرة ، ولكن لم يُجمَع شعره في ديوان ليُحفظ من الضياع ، أو جُمع ولم يصل الينا ، وانما بلغنا منه ما رواه ابن بسّام في الذخيرة ، والثعالبي في يتيمة الدهر ، والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس ، والمَقّري في نفح الطيب ، وابن خَلّكان في وفيات الأعيان . فكان لنا جملة صالحة من القصائد والمقطّعات والأبيات على اختلاف أبوابها وأغراضها ، مع أن المؤرخين اقتصروا على الاختيار ، فقلما أثبتوا قصيدة كاملة ، حتى أن ميميته الطويلة التي دوّن ابن بسّام منها نحو ثمانين بيتاً ، لم تخلص الينا بتمامها ؛ وكان ابن الحنّاط يعيبه بتطويل الشعر كما مرّ بنا آنفاً .

بَيد أن ما وصل الينا من شعره كافٍ لأن يطلعنا على صفاته

obeikandi.com

العامة والخاصة ، ويجيز لنا دراسته وابداء الرأي فيه ، لأنه يشتمل على مختلف أغراضه ومسالكه في نواحي التفكير والتعبير . فقد طرق من الأبواب والأغراض ما طرقه الشعراء في عصره وقبل عصره ، فمدح ورثى وهجا ، وافتخر وتغزل وشكا ، ووصف المرأة ومجالس اللهو والشراب ، والطبيعة والصيد ؛ وطلب الجديد في انسحابه على أذيال القديم دون أن يكون له أسلوب شخصي يميّزه من غيره ، اذا ذُكرت أساليب الشعراء . ومن غريب أمره أن يأخذ على أقرانه تصديرهم قصائد المدح بعرائس الشعر القديم ، ولا يرى غضاضة في وقوفه على الطلول وذكر الديار والمطيّ ، وهو نزيل القصور ، وربيب الحضارة الأندلسية . قال :

« ومما يَلزم المدّعيَ لصناعة الكلام ، اذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفي جميعها ، ويكون ما يطلبه من الابداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخم للمتكلم به ، وأدلُّ على أن الكلام له ، لا كما شهدته يوماً عند ابن حمود ، وقد صدر عن ابن الشَّرب ، ومدَحه عدة شعراء ، صدورُ أشعارهم لزينب والرباب ولَميس وفَرتنى ، وأعجازُها للجود والكرم وبذل اللُّهى ، ولم يُلمِمْ أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلا في بيتين أو ثلاثة ؛ فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريقُ العِدى من حدّ عزمكَ يَفرَقُ ،
وبالدهر ممـــا خاف بطشَكَ أولَقُ[1] »

وهـذا النقد جميـل يدل عـلى بصره بالشعر ومذاهبه ، ولكنه اذا طابق قصيدته هذه ، فلا يطابق سواها مثل قوله في مدح المؤتمن :

هـاتيكَ دارُهمُ ، فقفْ بمعَانهـا
تجدِ الدموع تجِدُّ في هَمَلانهـا[2]

عُجنا الرِكَابَ بها ، فهيّجَ وجدَنا
دِمَنٌ ذعَرنَ السربَ من أدَمانها[3]

فقد غلب الأسلوب القديم على استهلالاته ، وأسلكه في نظام المحافظين عـلى عمود الشعر التقليدي ، فسار عـلى خطتهم في الوقوف والبـكاء وذكر الدمن والآرام ، واستمد من كلام المتقدمين ألفاظه ومعانيه ، فحفلت أشعاره بالرواسم المجمَّدة ، والجمل الجاهزة ، فكان فيها مشترك الفكر والخيال والتعبير :

---

١ الاولق : الجنون ، وما يشبهه .
٢ المعان : المنزل .
٣ الادمان : الرماد والسرقين المتلبد .

أمّـا الرياحُ بجوٍّ عـاصمْ
فيحلبن أخلاف الغمـائمْ

☆

خليليّ عُوجا ، بارك الله فيكما ،
بدارتها الأولى نُحيّ فِناءها

ولم يقتصر في التناول على الشائع العام من كلامهم ، بل جاوزه الى الشخصيّ الخاص الذي يُعَدّ أخذه من السرقات الأدبية ، فاستباح أنعام البدو وكنوز العباسيين ؛ فاذا وصف الصيد على طريقة امرىء القيس ، وذَعَر الوحش بجواده ، وأكَل الشواء مثله ، لا يغفل عن تمسيح الأكف بعد الطعام :

نُمَسِّحُ بالحَوذان منه أكفَّنا ،
اذا ما اقتنصنا منه غير قليلِ [1]

وانما فعل ذلك اتباعاً للملك الضلّيل حيث يقول :

نَمُشُّ بأعراف الخيول أكفَّنا ،
اذا نحن قمنا عن شواءٍ مُضهَّبِ [2]

---

١ الحوذان : نبت نوره اصفر .

٢ المضهب : اللحم المقطع ، والمشوي على حجارة محماة ، ولم يبالغ في نضجه .

ووصف خيل ابن حمود في الحرب ، فلم يتحرج من الاغارة على أبي الطيّب المتنبي ، قال :

وخيلٍ تمشّى للوغى ببطونها ،
اذا جعلت بالمرتقى الصعب تزلقُ

قال ابن بسام : « وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامر سرقته ، ولا بلغ به طبقته ، وهو من قول أبي الطيّب :

اذا زَلِقت ، مشّيتَها ببطونها ،
كما تتمشى في الصعيد الأراقمُ

وربما حاول اخفاء سرقته بتفصيل المعنى وتطويله ، فقد سمع الرماديّ ، وهو شاعر أندلسي ، يقول :

ولم أرَ أحلى من تبسُّمِ أعينٍ ،
غداةَ النوى ، عن لؤلؤٍ كان كامِنا

فأعجبه تبسم العيون عن لؤلؤ الدمع ، فقال :

ولما فشا بالدمع من سرّ وجدنا
الى كاشحينا ما القلوبُ كواتِمُ

أمرنا بامساكِ الدموع جفونَنا ،
ليشجَى بما تطوي عذولٌ ولائِمُ

obeikandi.com

فظلّت دموع العين حيرى كأنها ،
خِلالَ مآقينـا ، لآلٍ تَوائِمُ

أبى دمعُنا يجري مخافةَ شامتٍ ،
فنظّمه بين المحـــاجر ناظِمُ

وراق الهوى منّا عيونٌ كريمةٌ ،
تبسَّمنَ ، حتى مـا تروق المباسِمُ

وليس من غرضنا أن نتقرى سرقات ابن شُهيد واحتذاءاته ، وانما أخرجنا أمثلة منها لندل بها على شيوع بنات أفكاره وضعف حصانتها . ومن ذلك معارضاته للشعراء ، يبني قصائده على بحور قصائدهم وقوافيها ، ويأخذ من معانيها وألفاظها ، فيشبه شوقي من هذا القبيل ، أو شوقي يشبهه ، فقد عارض رائية ابن أبي ربيعة مترسماً طريقه الى صاحبته بقوله :

وأخرى اعتلقنا دونهنّ ، ودونها
قصورٌ ، وحُجّابٌ ، ووالٍ ، ومعشرُ

يُزيِّنها مـاءُ النعيم ، وحفَّها
من العيش فَينانُ الأراكةِ أخضرُ

اذا رامها ذو حاجةٍ ، صدّ وجهَهُ
ظُبى الباتراتِ والوشيجُ المكسَّرُ

obeikandi.com

تكاتفتا ، والليلُ قد جاش بحرُه ،
وقد جعلت أمواجُه تتكسرُ ،

الى بيت ليلى ، وهو فردٌ بذي الغضا ،
يُضيء كمين المستهامِ ويَزهَرُ

وعارض بائية البحتري بقوله : « هذه دار زينب والرَباب »
وقد قال أبو عبادة :

ما على الركبِ من وقوف الركابِ
في مغاني الصِبى ، ورسمِ التَصابي

وأمثال هذه المعارضات وما يشاكلها كثير في شعر أبي عامر . فما يفتأ يذكّرك بغيره ، فتلقاه تابعاً لا متبوعاً ، ومن أجلها انكشفت مقاتله لخصومه ، فرموه بقوارص النقد ، وشكّوا في شعره ، وعابوا أخذه عن غيره ، فدافع عن نفسه في رسالة التوابع والزوابع ، اذ جعل شيطانَ المتنبي يقول فيه : « سمعت أنه يتناول . » فيرد عليه بقوله : « للضرورة الدافعة ، وإلاّ فالقريحة غير صادعة ، والشفرة غير قاطعة . »

ورأينا أنه لم يتوكأ على القدماء وحدهم ، بل تساند الى المحدَثين أيضاً ؛ فشعره مزيج من جاهلي اسلامي ، وعبّاسي أندلسي ، كسائر الشعراء المولَّدين في الشرق والغرب . ولئن

عداه الطابع الخاص في أسلوبه المشترك ليُعرف بـه كغيره من ذوي الطوابع الشخصية ، لم يَعدُه النَفَس الشعري ، والحسّ المرهف ، وبراعـة الوصف ، وحسن التركيب . فإذا قرأت شعره ، وغابت عنك فيـه قوة الابداع ، ومُعجزة الاختراع ، تروقك منه نفحـات زكية الشعور ، دقيقة التصوير ، محكمة التعبير ، فيهـا من الحياة والحركة واللون والنَغَم مـا يجيز له الوقوف بجانب الشعراء المحسنين ، على اعتدال درجة الاحسان ، وانخفاضها عن درجة الابداع .

والشعور عنده لا يتعدى الاحساس بالشيء ، ميلاً اليـه أو نفوراً منه ، فما هو بالعاطفة المتدفقة ، ولا الروحانية العميقة . وتصويره قريب المأخذ ، يسيرُ التلوين ، تكتنفه المـادة ، ولا يخلو عنه الإحياء والتشخيص ، كوصفه للورد في رده على الوزير أبي مروان . قال ابن بسام : « وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارَعةَ التي بانت فيها قوته ، ولدُنت اختراعاته ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن فيصيِّره مُحَسَّناً بحسن مَساقه . »

ولغته مختارة الألفاظ ، متينة التركيب ، على غير صلابة أو خشونة ، وتغلب الصنعة عـلى صياغته ، فيكثر من الجنـاس والارصاد والتصريع ، والتشابيه والاشارات والأمثال واستخدام

معاني أسماء النجوم ؛ غير أنها لا تنبو عن السمع لأنه لا يسرف فيها ولا يتبقّض . ولم يكن يجهل ذلك التكلف في طبعه ، فجعل شيطانَ أبي نواس في التوابع والزوابع يقول له عندما سمع شعره : «لله أنت ، وان كان طبعك مختوعاً منك !»

وقلما تلقى النعومة في نغمة أشعاره لتوفُّره على الجزالة ، وشدة الأسر ، واعتيام الألفاظ الفخمة ؛ فالجمال الفني عنده مرتفع النبرة في الغالب ، لا ينخفض جَرْسُه إلا في بعض نفثاته . وقد أشار الى ذلك بطبعه النَقّاد عندما أراد أن يصطنع النغم الرقيق على مثال أبيه ، بعدما أورد طائفة من مدائحه ومفاخره ؛ قال ابن بسام : «وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعر لأبيه ، هي ثابتة في القسم الرابع من هذا التصنيف ، قال فيها :

قهقَهَ الإبريقُ منّي ضحِكاً ،
ورأى رِعشةَ رجلي فبكى

ثم قال : فان استهلّ الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر ، وهكذا الطبع ، وهذا الماء رقة وعذوبة ، والهواء لطافة وسهولة ، لا ما كنّا فيه من الشنائع والقعاقع ! قلنا له :

أذّنَ الديكُ ، فتُبْ ، أو ثوّبِ ،
وانضَحِ القلبَ بماءِ المنبِ [1]

وتأمّلْ آيةً مُعجِزةً ،
ما قرأنا مِثلَها في الكتبِ

ركعَ الإبريقُ من طاعتِه ،
وبكى ، فابتلَّ ثوبُ الأكوبِ

ولْولَ المِزهرُ ينفي كُرَبي ،
وتطرّبْتُ ، فأعيا طربي

وربيبٍ قامَ فينا ساقياً ،
كالرَّشا أُرضِعَ بينَ الربربِ

ظبيةٌ ، دونَ الصبايا قُصّتْ ،
فأتتْ غيداءَ في شكلِ صبي

فُتِّحَ الوردُ على صفحتِها ،
وحماهُ صُدغُها بالعقربِ

---

١ ثب : ارجع . ثوب : أقم الصلاة ، وفيه مراعاة النظير لقوله : أذن الديك . انضح : اغسل مطهراً .

فمَشت نحوي ، وقد مُلكْتُها ،
مِشيةَ العصفور نحو الثعلبِ »

فهذه الأبيات جديرة بالشاعر الأندلسي ، غير أنه لم يُكثر من أمثالها لميله الى الأسلوب القديم ، حتى أنه لم يلتفت الى فن الموشحات ، مع ملاءمتها لمجالس لهوه وشرابه ، فأعرض عنها ، في حين كان معاصره أبو بكر عبادة بن ماء السماء قد اشتهر بها ، وأتقن صنعها ، وقوّم اعوجاجها ؛ ولكنه جارى العبّاسيين في إحياء الطبيعة ، وتمثيلها امرأة حسناء يتلذذ بأوصافها :

سهر الحيا برياضِها ،
فأسالها ، والنُورُ نائمْ [١]

حتى اغتدت زَهَراتُها
كالغيد بالُّلجّ العَوائِمْ

من ثَيِّباتٍ لم تُبَلْ
كشْفَ الخدود ولا المعاصم [٢]

وصغارِ أبكارٍ شكت
خجلًا ، فعاذت بالتمائمْ

---

١ الحيا : المطر .
٢ لم تبل : لم تبال .

وردٌ ، كما خجلت خدود —
العينِ من لحظات هائمْ

وشقيقُ نُعمانٍ شكت
صفحاتُه من لطمِ لاطِمْ

وغصونُ أشجارٍ حكت
رقص المآتِمِ للمآتِمْ

وتحدّث اليها وسخّرها لمدح أميره ، على طريقة الأندلسيين ، بقوله يمدح المؤتمن :

وغمامٍ باكَرتْنا عَينُه ،
تُترِع الأفقَ بدمعٍ صَيِّبِ[1]

مثلَ بحرٍ جاءنا من فوقنا ،
جِرمُه من لؤلؤٍ لم يُثقَبِ[2]

فدنا ، حتى حسبنا أنه
يمسَحُ الأرضَ بفضل الهَيدَبِ[3]

---

١ العين : السحاب من ناحية القبلة .
٢ جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : أراد به البرد .
٣ الهيدب : السحاب المتدلي أو ذيله .

فسألناه ، وقد أعجبنا
حَشْوُهُ العينَ بمرأىً مُعجِبِ :

أنت ماذا؟ قال: مُزْنٌ عَلَّمتْ
كَفَّهُ النفحةَ كفًّا دَرِبِ[1]

سامَني بالشرق أن أسقيَكُمْ ،
رحمةً منه ، بأقصى المَغرِبِ[2]

فسألناه : أينْ ذاك لنا ،
قال: هل يخفى ضياء الكوكبِ ؟

مَلِكٌ ، ناصبَ مَنْ خالفَكم ،
عامريُّ المُنتمى والمَنْصِبِ[3]

فعلمنا أنها نَفحةُ مَنْ
ورث الجود أباً بعد أبِ

ووصف خمرة الدير والساقي على أُسلوب أبي نواس وأصحابه المُجّان ؛ واصطنع الغزل القصصي اللّيّن كبشّار ، وجاراه في

---

١ النفحة : العطية .

٢ سامني : كلفني .

٣ ناصب : عادى . المنصب : الحسب والأصل .

obeikandi.com

غزله العبثي على لسان الحمار والبغل . وكان شعره في سجنه وعلته أفيض أقواله عاطفة ، وأبلغها تأثيراً ، لاختلاف الشواعر النفسية فيه : من ألم وضعف ، ومهانة ، وتوقُّع للموت ، وإباء وعزة ، ومودة للاخوان . وقد أوردنا أمثلة مختارة من كلامه ، وفي رسالة التوابع والزوابع طائفة حسنة منها ، تشتمل على شتى فنونه وأغراضه ، يمكن الرجوع اليها في مواطنها من هذا الكتاب .

الكاتب

ذكر ابن خلّكان من آثار ابن شهيد كتاب كشف الدك وآثار الشك ، ورسالة التوابع والزوابع ، وكتاب حانوت عطار ، ورسائل كثيرة . ولكن لم يبلغ الينا منها إلا فصول من التوابع والزوابع أوردها ابن بسام في ذخيرته ، وجملة رسائل مختلفة الأغراض رويت في الذخيرة ويتيمة الدهر للثعالبي .

قال ابن بسام :

« وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمّياتها ، نادرة الفَلَك ، وأُعجوبة الليل والنهار ؛ ان هزل فسجعُ الحمام ، أو

جدٌّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتّسق الدرُّ على النحور ، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور ، الى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقُّ القلوب قبل الجلود ، وجوابٍ يجري مجرى النَفَس ، ويسبق رجع الطرف المختلَس . »

وقال فيه ابن حيّان :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفَر الكلام ؛ واذا تأملته ولَسَنَه ، وكيف يجرُّ في البلاغة رسَنَه ، قلتَ : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته الى ما شاء من نثره ونظمه ، في بديهته ورويّته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناءٍ للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ؛ فانه لم يوجد له ، رحمه الله ، فيما بلغني بعد موته ، كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلاّ ما لا قَدْرَ له ، فزاد ذلك في عجائبه ، وإعجاز بدائعه . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارّة أقدرَ منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرّفَ فيه تصرُّفَ المطبوعين ، فلم يقصّر عن غايتهم .

« وله رسائل كثيرة في فنون الفُكاهة وأنواع التعريض والأهزال : قصارٌ وطوال ، برّز فيها شأوَه ، وأبقاها في الناس خالدة بعده . وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب

وحدّته ، مع رقة حواشي كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وخلائقه ، آيةً من آيات الله خالقه . »

وهذه الرسائل التي ألمع اليها ابن حيّان منها ما خاطب به الأمراء والوزراء ، كرسائله الى المؤتمَن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، والى الموفق مجاهد أمير دانية ، والى الوزير ابن عبّاس ؛ ومنها ما خاطب به الأدباء ، كرسائله الى أبي القاسم الافليلي ، وابن الحنّاط ، وأبي بكر أشكمياط ؛ ومنها فصول اجتماعية تاريخية ، وأبحاث أدبية ضمّنها نظراته وأحكامه في النقد الأدبي ، سنعود اليها في كلامنا على ابن شهيد الناقد ؛ ومنها رسالة التوابع والزوابع ، وسنخصها بدرس تحليلي على حدة .

ومن حسنات رسائله أنها تضيء جانباً من حياته لم يأبه له المؤرخون ، أو أعاروه من الاهتمام قليلًا ، فبدت من خلالها علاقاته السياسية والأدبية ، وصداقاته وعداواته ، ووفاؤه لأولياء نعمته ، ومودّته للاصحاب والاخوان ، وحدّته على الخصوم والحسّاد ، وسلاطة لسانه في السخر والتعريض وصريح الهجاء . فرسالته الطويلة الى المؤتمن تطلعنا على ما كان له ولأبيه من الحظوة في الدولة العامرية ، وعلى بعض شؤونه في صباه . ورسالته الى الموفق ترجمة لما وقع بينه وبين الفرَضي من العداء

والشحناء . ورسالته الى أبي القاسم الإفليلي فيها عتبه عليه لازوراره عنه ، وجريه في حلبة الفرضي وابن فتح . ومن فصوله وأحاديثه نستخرج جملة من أخباره مع الوزراء والأدباء وآرائه في أبناء زمانه ممن انتحلوا السياسة ، أو طلبوا العلم ، أو احترفوا التعليم . وله في صفة معلمي قرطبة ، وتصوير أخلاقهم ، وشرح أحوالهم في مجالس الأدب ، ما يذكرنا الجاحظ وسخره اللاذع بهذه الجماعة . فمن ذلك قوله :

« وقومٌ من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنُون على أكبادٍ غليظة ، وقلوبٍ كقلوب البُعران ، ويرجعون الى فِطَنٍ حَمِئةٍ ، وأذهانٍ صَدِئة ، لا مَنفَذَ لها في شُعاع الرِقّة ، ولا مَدَبَّ لها في أنوار البيان . سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ؛ فهم يصرّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريفَ من لم يُرزَق آلة الفهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة ، مما هي مخصوصة بها ، ولا تقومُ[1] تلك الصناعة إلا بتلك الآلة ، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور ، لتوتد

---

١ ولا تقوم : في الاصل : لا تقوم .

obeikandi.com

رُسْغِهِ[1] واستدارة حافره ؛ ولا له بنانٌ يجُسّ به على دَسْتَانٍ[2] . ولو جاز أن يكون حمار يغني :

ما بالُ أنجُمِ هذا الليل حائرةً ،
أضلّتِ القصدَ ، أم ليست على فَلَكِ ؟

وشِبهَه ، من أجل أن له حنكاً ولساناً ، وقصبة رئةٍ ، لما جاز أن يوقّع بالمضراب على الأوتار ، ويتمّم بجسّ الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السَبّابة والبِنصِر ، فيبلبل بنشيده ، ويولول في ضربه على بسيطه .

فهذه حال العصابة من المعلمين : يدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريانات الى القلب ، وزيادةِ غِلَظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي . ومما يعين على ذلك بالحَدْس وطريق الفِراسة فسادُ الآلة الظاهرة ، كفرطحة

---

١ الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل في الدابة .

٢ الدستان من العود : مكان اصلاح الاوتار وشدها ، جمعه دساتين ، في الاصل دستبان وهو تصحيف .

الرأس وتسفيطه[1] ، ونتوء القَمَحْدُوَة[2] ، والتواء الشِدق ، وخزَر العين[3] ، وغلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة[4] . فنستعيذ بالله ألاّ يُشَوِّه خلقة قلوبنا ، ولا يُجسي[5] أجرام أكبادنا ، ويضمّ أوتارنا وأعصابنا ، ولا يُعظِّمَ أنوفنا ، ولا يجعلنا مُثْلَةً للعالمين ! »

وقال فيهم أيضاً :

« ومما عُلم من خُلق هذه العصابة ، اذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالمَلَق ، وهم منطوون على حسد وحنق . فإذا جمعتنا المحافل ، وضمتنا المجالس ، تراهم الينا مُبَصبِصين[6] ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائغين . وانما يتبيّن تقصير المقصِّر ، وفضل السابق المبرِّز ، اذا اصطكت الرُكب ، وازدحمت الحلَق ، واستُعجِل المقال ، ولم توجد فُسْحة لفكرة ،

---

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته للسفط ، وهو وعاء كالقفة .

٢ القمحدوة : مؤخر القذال .

٣ خزر العين : انكسار بصرها وضيقها وصغرها ، أو نظرها بأحد الشقين ، او حولها .

٤ الارنبة : طرف الأنف ، وانزواؤها : تجمعها وتقبضها .

٥ يجسي الشيء : يجمله صلباً .

٦ مبصبصين : فاتحين أعينهم ، من بصبص الجرو فتح عينيه ، أو بمعنى متملقين كتبصبص .

ولا أمكنت نظرة لرويّة ؛ أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها ، فانه يقع فيها ويجري لديها ما لا ينفع له الاستمداد ، ولا ينفذُ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة . فترى الجواد السابق إذ ذاك مُتشوّفاً[1] بأذنه ، باحثاً لكديد[2] الاحسان بيده ، طامح النظر ، صَهصَلِق[3] الصليل ؛ وأهلُ الصَنعة خُرْس ، لا يُسمع لهم جَرْس ، ولا شيء عندهم غير حسو الكاس ، وشمّ الآس ، وتنفّس الصُعَداء ، قد اصفرّت ألوانهم ، وقَلَصت شفاههم ، كأنهم من رجال عُذْرة . »

وكذلك بحثه في الكتابة وشروطها ، وصفات أصحابها ، يقرّب الجوار بينه وبين عبد الحميد . وإذا رأيناه يخرج الجاحظ من طبقة الكتّاب ، فانما أراد بهم كتّاب الملوك ، ولم يرد الكتابة بالمعنى المطلق ، كما توهم بعض النقّاد من أهل زماننا . قال :

« ذُكر يوماً عند أبي القاسم سهلُ بن هارون والجاحظ ، فضَرب فيهما مثل العامة : « بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرَس . » هذا من الإنحاء العظيم على سهل ، والأولى أن يسمّيا مُحسنَين ، إلا أن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظ مؤلفُ

١ متشوفاً : أي متطلعاً الى الخبر .

٢ الكديد : الأرض الغليظة .

٣ الصهصلق : الشديد من الاصوات .

دواوين . وقد يؤدّي النظر الى أنهما في طريقتين مختلفتين ، وكلاهما محسن في بابه ؛ إلا أنه لم يُر أغبنُ من الجاحظ لنفسه ؛ ان كان واحد البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابنَ الزيّات وابراهيمَ بن عباس بلغا بها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما ؟ فلا يخلو في هذا إما أن يكون مقصّراً عن الكتابة وجمعِ أدواتها ، أو يكون ساقط الهمة ، أو يكون افراطُ جحوظ عينيه قعد به عنها ، كما قصّر بي أنا فيها ثِقَل سمعي ، وبأبي القاسم ورَمُ أنفه . إذ لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، وأذنٍ ذكية تسمع منه حِسَّه ، وأنفٍ نقيٍّ لا تَذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيّب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقيّ الثوب ، ولا يكونَ وَسِخ الضرس ، منقلب الشفة ، مكحّل الأظفور ، وَضِر الطوق[١] . وربما أنكر مُنكِر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة ، فقال : « وأيّ أداة نقصت الجاحظ ؟ » فنقول : أولُ أدوات الكاتب العقلُ ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجَدَليّاً غير حصيف ، وفقيهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسِب العقل الى سهل أكثر من نسبته الى الجاحظ .

---

١ الوضر : الوسخ .

لو شهد الجاحظ سهلاً يخادع للرشيد مُلكاً ، ويدبّر له حرباً ، ويعاني له اطفاء جمرة فتنةٍ ، مستضلعاً في ذلك كله بعقله ، وجَودة علمه ، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة البغال ، وغير الكلام في الجُرذان وبنات وَردان[1] ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقاً . »

ويغلب القصص على إنشاء أبي عامر ، فتجده في مختلف رسائله وفصوله محدثاً يسوق الخبر والنادرة ، ويحسن السرد والأداء ، ويعنى بالتحليلات النفسية ، وتصوير الأخلاق والأشكال ، كما في كلامه على الفَرضي والإفليلي ، وسهل بن هارون والجاحظ ، وعلى المعلمين . وأوصافه دقيقة بارعة ، سواء تناول بها المعاني الذهنية ، أو الأجسام الحيّة والجامدة ، كوصفه للنفس الروحانية في ذمه المعلمين ، مستنداً الى علم الفراسة في ذكر أشكال الذين فسدت روحانيتهم ؛ وكوصفه لدار الفرضي ، ورهطه ، ومواعينه وعقاقيره ؛ أو وصفه للحلواء وصاحبها المنهوم ؛ وهذه الرسالة مثبتة في التوابع والزوابع ، وهي تشبه المقامة في مساقها .

وأظهرُ خصائصه في الوصف أن يتتبع الموصوف بتصوير

---

١ بنات وردان ، واحدتها بنت وردان : دويبة نحو الخنفساء ذات ألوان مختلفة أكثر ما تكون في الحمامات والكنف .

obeikandi.com

ميزاته في الأعضاء والألوان ، والصوت والحركة والطباع ، حتى يجعله مُحَسّاً بارز الشخصية ، لا شبحاً غامضاً ، كما وصف الماء متأثراً ببديع الزمان ، والبرد والنار والحطب والحلواء . ويبدو في أوصافه الوضيع رفيعاً ، والقبيح جميلاً ، وانما هما رفعة الفن وجماله أضفاهما على موصوفاته الحقيرة الدميمة ، فاكتسبت بهما رُواء ، وعلت قدراً ومقاماً ، كوصفه الثعلب والبرغوث ، وهما في التوابع والزوابع ، أو وصفه للبعوضة إذ يقول :

« البعوضة مليكةٌ ، لا جيشَ لها سواها ، تحقرها عين من يراها ، تمشي الى الملك بنَدبها ، وتضرب في بُحبوحة داره بطبلها . تؤذيه بإقبالها ، وتعرّفه بإراقة دمه ما لها . فتُعْجِز كفّه ، وترغَم أنفه ، وتضرّج خده ، وتَفري لحمه وجلده . زمجرتها تسليمها ، ورمحها خرطومها ، تذلل صعبك ان كنت ذا قوة وعزم ، وتسفِك دمك ، وإن كنت ذا حِلْف وعسكر ضخم . تنقُض العزائم ، وهي منقوضة ، وتُعجز القويّ وهي بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليقته . »

وإنشاؤه رائق الديباجة واضحها ، لا تكدّر الصنعة صفاءه لقوة طبعه ، وتجافيه عن الافراط فيها ، مع أنه يلتزم السجع أحياناً ، ويؤثر المجاز على الحقيقة ، فتكثر عنده الاستعارات والتشابيه والكنايات . وجملته رشيقة العبارة ، محكمة

التركيب ، فيها جزالة وايجاز ، على غير خشونة واخلال ؛ يمدُّها بآيات القرآن ، وأقوال العرب وأمثالهم ؛ ويستعين عليها بمأثورات أخبارهم وأحاديثهم ، فتستكين اليه الرواسم الجاهزة ، والعناصر المستعارة ، ولذلك قال الكاتب أبو بكر أشكمياط حين وقع على فصول له : « فِقَرٌ حسان إلاّ أنه عثر عليها . »

بَيد أنه يحسن صهرها وتنزيلها ، فلا تُلفى غريبةً مُهجَّنة ، ولا نافرة مُقلقَلة ، ولا مُجرَّرة مُتعسَّبة ، فهو من النفر الذين اذا كتبوا ارتاحت اليهم ملكة البلاغة ، وتشققت لهم أكمام البيان .

الناقد

مرّ بنا في كلام ابن حيّان أن أبا عامر ما أدرك غير الوسط في ثقافته الأدبية ، لقلة صبره على طلب العلم ، وعدم عنايته باقتناء الكتب ، فهو من أولئك الفتيان الذين وصفهم بقوله : « ولكن البطالة على الفتيان غالبة ، والسآمة عليهم مستولية . » ويخبرنا في صدر التوابع والزوابع أنه كان في أيام كتّاب الهجاء ، يحِنّ الى الأدباء ، فاتّبع الدواوين ، وجلس الى الأساتيذ ، فحصّل العلم بقليل من النظر ، ويسير من المطالعة . على أنه لم يذكر احداً من هؤلاء الأساتذة ، ولا اعتدّ بشيخ

مشهور أخذ عنه ؛ فاستهدف بذلك الى تعيير الخصوم ، والشك في علمه ومعلميه . وكأنه يردد كلامهم بلسان الجني صاحب الإفليلي حين يقول فيه : « فتى لم أعرف على مَن قرأ . » ونعلم مصير الكتب عنده ، بعد مطالعته لها ، من ذاك الحوار الذي جرى بينه وبين الجني ، قال : « فطارِحْني كتاب الخليل . قلت : هو عندي في زِنبيل . قال : فناظِرني على كتاب سيبويه . قلت : خريت الهرة عليه ، وعلى شرح ابن دَرَسْتَوَيه . »

وبيّنٌ أن أبا عامر ما أراد سوى المفاخرة بقراءة هذه الكتب ، واستغنائه عنها ، وان يكن في كلامه ما يؤيد قول ابن حيّان من أنه قليل الاعتناء باقتنائها ، قليل الرغبة في الطلب . فقد كان صاحبنا يعتمد على غرب ذاكرته ، وتوقد ذهنه ، وذكاء قلبه ، فاكتفى بيسير المطالعة ، وقليل النظر ؛ واقتصر على صدره خزانة لكتبه ، فتأتّى له قسط صالح من الأدب ، ان فاته الرسوخ فيه ، على حد قول ابن حيّان ، لم يفته الاطلاع على الشعر القديم والحديث وعلى كتب التاريخ ، ولا قصّرت به المشاركة في علوم اللغة وآداب القرآن والحديث ، ولا نـدّ عنه حسن المذاق ورهَف الحسّ ، فصحّ له أن يتصدر للنقد ، وقد تهيّأت له عدته المعروفة ، مدافعاً عن نفسه ، مقاوماً خصومه ونُقّاده ،

مدلياً بآرائه في الشعر والنثر ، في الألفاظ والمعاني ، في الفن والجمال . فعدا على المعلمين والنحاة ، وهم في نظره حساد الأدباء ، لا يحسنون الكتابة والشعر ، لضعف روحانيتهم ، وسوء فهمهم ، وغلاظة أكبادهم : « سقطت اليهم كتب في البديع والنقد ، فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الايقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرّفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصريف من لم يُرزَق آلة الفهم . » ومن دلائل تقصيرهم : « أنهم لا يُقدمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفاً ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً . » فهم ينفثونها بين تلاميذهم : « ولا تروى لهم نادرة ، ولا تؤثر عنهم في البلاد شاردة . »

ومن سخره بالنحاة أنه جعل في التوابع والزوابع تابعةَ أحد الشيوخ إوزّة ، والإوزّ يُضرب به المثل في الحمق والسخافة ، وجعلها تجادله فتقول : « ما الذي تحسن ؟ قلت : ارتجال شعرٍ ، واقتضاب خطبة . قالت : ليس عن هذا أسألك . قلت : ولا بغير هذا أجاوبك . قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال ، وأنا إنما أردت احسانَ النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام ، ومادة البيان . » ثم يسألها : « فهل تعرفين في الخلائق أحمق من إوزّة ؟ » قالت : « لا . » قال : « فتطلّبي

عقل التجربة ، إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ؛ فاذا أحرزت منه نصيباً ، وبؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظرني في الأدب . »

ولم تكن قسوته على النحاة والمعلمين دون تعنته سائرَ الأدباء في عصره ، فانه سخط عليهم لما لقي من أذى خصومتهم وحسدهم ، وكان كغيره من الكتّاب والشعراء الذين يصعب عليهم أن ينسبوا الاحسان الى أقرانهم وأترابهم ، ولاسيما الجيل الناشيء على أثرهم ؛ يملكهم الغرور ، فيتوهمون أنهم انفردوا بالاجادة والنبوغ ، ولم يبقَ بعدهم مجال لمبدع أو مجيد . وفي كتاب له الى المؤتمن يصور هذه الجماعة التي لم يكن بريئاً منها ، أجمل تصوير ، معتدّاً بأدبه وإبداعه ، متذمراً على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم فلم يفهموه : « لا كقوم عندنا حظهم من الفهم الحفظُ ، ومن العلم الذكرُ ، وهذا حظّ القُصّاص ، وأعلى منازل النُوّاح . فترى المُمخرِقَ منهم ، اذا قُرِىء عليه الشعر ، يزوي أنفه ، ويكسر طرفه ؛ واذا عُرضت عليه الخطبة ، يُميل شِقّه ، ويلوي شِدقه . فان تناولهما لم يُبقِ مِلحة إلا حشدها ، ولا أبقى عفصة فجّة إلا جلبها . وأصل قلّة هذا الشان وعدمِ البيان ، فسادُ الأزمنة ، ونبوّ الأمكنة ، وأنّ الفتنة نسخٌ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفَهِم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة ، يُلمَح بأعين الشَنَآن ،

ويُستثقل بكل مكان . هذا دأبنا وحربنا . إنما طلبنا البيان ، فأدركناه بكل لسان ، والتمسنا الابداع ، فأثبتنا كل معجِبٍ ، وأتينا على كل مطرب ، فما سقطنا على سُوقةٍ يهَشّ الينا ، ولا دَفَعنا إلى ملك يصبو بنا ، وليت ، اذ لم يكن غُنْم ، ألاّ يكون غُرم ! ووددنا أنّا بَرازخ[1] لا حربٌ ولا سلم ، ولا يقظة ولا حُلم ؛ كفى بذلك إنحاءً على الزمن ! »

ومن ذلك ما جاء في رسالة التوابع والزوابع ، اذ يقول له صاحب الجاحظ : « إنك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر . » فيجيبه : « ليس هذا ، أعزّك الله ، مني جهلاً بأمر السجع ، وما في المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ، ودُهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحَرَا أن أُحرّكهم بالازدواج . » فيقول له الجني : « فكيف كلامهم بينهم ؟ » فيقول : « ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي اليه طريق ، ولا للبيان عليه سِمة ، إنما هي لُكنة أعجمية ، يؤدّون بها المعاني تأدية المَجوس والنَبط . » فيصيح تابع الجاحظ : « إنّا لله ! ذهبت العرب وكلامها ! ارمهم ، يا هذا ، بسجع الكُهّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطير الك ذكراً فيهم ! »

---

١ البرازخ ، جمع برزخ : وهو الحاجز بين الشيئين .

وخصّ أبا القاسم الافليلي بنقد موجع تعمَّد فيه إظهار أوصافه على ألسنة الصبيان ليخرجه من حلقة الأدباء :

« وهو أنجل أهل الأرض لا محالة . ولم يقصّر بنا عنده إلا توفيرنا لثَغامته[١] ، وهو يرى أن بعض صبياننا قد أقلقوه حين قالوا : « ليست مِشيته مِشيةَ أديب ، ولا وجهه وجهَ أريب ، ولا جِلسته جلسةَ عالم ، ولا أنفه أنفَ كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر . »

وفي استناده الى الأوصاف يتكلم على تأثير النفس في الانشاء ؛ فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور المعاني في أجمل هيئاتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يُطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال .

ولتركيب الأعضاء ، كما يقتضي علم الفِراسة ، تأثير في صلاح الآلة الروحانية وفسادها ؛ ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة الروحانية ، والخادِمة لآلات الفهم : منها فَرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القَمَحدُوة ، والتواء الشِدق ، وخَزَر العين ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء الأرنبة .

---

١ الثغامة : نبتة بيضاء يكنى بها عن الشيب .

وغير خفيٍّ ما في هذه الأحكام من غموض ومجازفة لا يصح الركون اليهما ؛ إلاّ أنها خطوة محمودة خطاها ابن شهيد في النقد الأدبي ، مؤلفاً في طريقه بين انشاء الكاتب وحالات نفسه . وصور أعضائه . «فإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . » فمن كان طبعه روحانياً استولت نفسه على بدنه ، وجاء : «بصور رائقة من الكلام تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، وللجمال تركيبها أُسّاً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحُسن من غير حُسن كقول امرىء القيس :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي

وقوله :

تنوّرتُها من أذرِعاتٍ ، وأهلُها
بيثرِبَ ، أدنى دارِها نظَرٌ عالِ

فان هذه الديباجة اذا تطلبتَ لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . »

فأبو عامر يلمس هنا نظرية الشعر الصافي ، بما فيه من توقيع

وتركيب وجمال غير محدود ، ويعزوه الى صفاء النفس واستيلائها على الجنان ، مع الاحتفاظ بميزانَي معرفة الغريب ، واستيفاء مسائل النحو . على أن هذا لا يعني أنه يريد تطهير الشعر الصافي من المعنى والعاطفة والصورة كالأب بريمون وأصحابه دعاة هذا المذهب الحديث ؛ فقد كان ، على اجلاله لروعة الديباجة ، يجدها بعض الأحيان خداعة للناقد ، فيوصيه أن يحترس منها في حكمه على الشاعر ، ولا ينساق بظواهرها ، فليس الشعر باللفظ وحده ، وانما يستحق الصناعة من يتقحّم بحور البيان ، ويتعمد كرائم المعاني والكلام ، وينطق بالفصل ، ويركب متون الجِدّ ، ويطلب الأشياء النادرة والسائرة ، وينظِم من الحكمة ما يبقى بعد موته ، متصرّفاً تصرُّفَ الملح في الطعام ، متلوّناً في الأغراض والصور ، تلوُّنَ أبي براقش[1] .

ويرى أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات ؛ فاذا جاور النسيبُ النسيبَ ، ومازج القريبُ القريبَ ، طابت الألفة ، وحسنت الصُحبة . واذا رُكِّبت صور الكلام ، حسنت المناظر ، وطابت المخابر . وللعذوبة اذا طُلِبت ، والفصاحة اذا التُمِست ، قوانين من الكلام ، من طلب بها

---

[1] أبو براقش : طائر صغير بري كالقنفذ ، أعلى ريشه أغبر ، وأوسطه احمر ، وأسفله أسود ، فاذا انتفش تغير لونه ألواناً شتى .

obeikandl.com

أدرك ، ومن نكّب عنها قصّر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه .

وأهل صناعة الكلام ثلاث طبقات متباينون في المنزلة ، متفاضلون في شرف المرتبة ، على مقدار احسانهم وتصرفهم . فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويخترع المعاني ، ويحرز جيّد التأليف ، إلا أنه يجري في الأبيات القليلة والمآخذ القريبة ، فاذا كثرت عليه وازدحمت ، وقف وانفلّ وتلاشى واضمحل . ومنهم الكارع في بحر الفزارة ، يمر مرّ السيل في اندفاعه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل ، فذلك الألسَنُ يوم حرب الكلام ، لا تخطىء ضربته ، ولا تصاب غِرّته . ومنهم من يتجافى عن الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا مُني به أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في أنحاء من الصنعة ، وجُلُّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة ، وبذلك يصاحب الأيام ، ويجاري أبناء الزمان . ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

وبحث في الأساليب واختلافها باختلاف العصور والأمم فقال : « وكما أن لكل مقام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من

الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه . وكما أن للدنيا دولاً ، فكذلك للكلام نُقَلٌ وتغايُرٌ في العادة . » ولذلك أنكر على معاصريه تصديرهم قصائد المدح بذكر عرائس الشعر جرياً على الأسلوب القديم ، وأوصى أهل الصناعة ، اذا اعتمدوا وصف حالة ، أن يستوفوا جميعها ، ولا يخرجوا عنها ، فذلك أبهى لكلامهم ، وأدلّ على أن الكلام لهم ومن تأليفهم . وعاب على عبد الحميد تأثره بلغة الأعراب ، وروح البداوة ، فخاطب صاحبه الجني في رسالة التوابع والزوابع بقوله : « اني لأرى من دم اليربوع بكفّيك ، وألمحُ كُشى الضبّ على ماضِغَيك ! »

ولم يغفل عن السرقات الأدبية ، ومن حقه ألا ينساها ، وهو من المتهَمين بها ، فأجازها للشعراء ، على شرطِ وضعه ، وقانونٍ رسمه ، قال في رسالة الجن : « اذا اعتمدت معنى قد سبقك اليه غيرك ، فأحسَنَ تركيبه ، وأرَقَّ حاشيته ، فاضرِبْ عنه جملة ، وإن لم يكن بدّ ففي غير العَروض التي تقدّم اليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى مُنّتُك . » وأدرك على عمر بن أبي ربيعة ترسّمه بيت امرىء القيس :

سموتُ اليهـا بعدما نام أهلهـا ،
سموّ حَباب الماء حالاً على حالِ

فقال : «ألا ترى عمر بن أبي ربيعة ، وهو من أطبع الناس ، حين رام الدنو منه والإلمام به ، كيف افتضح في قوله :

ونفّضتُ عنّي النومَ ، أقبلتُ مِشْيةَ
الحُباب ، وركني ، خَشيةَ القوم ، أزورُ

ولو ركب غير عَروضه لخلص . »

ويستشهد على صحة زعمه بقول اسماعيل بن يسار النَسائي :

أقبلتُ ، والوَطء خفيف ، كما
ينساب من مَكمنِه الأرقَمُ

وأنه عندما حاول النظر اليه ، خالفه في العَروض ، فابتعد عنه ، ولم يفتضح مثل ابن أبي ربيعة ، قال :

أدِبُّ إليه دبيب الكرى ،
وأسمو اليـه سموّ النَفَسْ

ولسنا على رأي أبي عامر في هذه القضية ، فالسرقات الشعرية لا يخفيها اختلاف العَروض ، ولا يشفع شيء لمستحلّها ، إلاّ اذا ولّد منها صوراً أو معـاني جديدة يحق له أن يدعيهـا كما قال أبو نواس :

obeikandl.com

دع عنك لومي ، فان اللوم اغراء ،
وداوني بالتي كانت هي الداء

وهو مأخوذ من قول الأعشى :

وكأسٍ شربتُ على لذّة ،
وأخرى تداويت منها بها

فزاد عليه المثل المولّد في صدر البيت ، وجعل مداواة الداء بالداء مطلقة لا مقيدة ، فنُسب المعنى اليه ، واشتهر بيته على أفواه المنشدين ، وخمل بيت أبي بصير . ونرى أن عمر أقرب في صورته الشعرية الى معاصره اسماعيل بن يسار منه الى امرىء القيس ، وان شابهه الشاعر الكندي بالعَروض ، ولطف الوصول الى الحاجة ، كما أن أبا عامر يجاور في صورته الشاعر الجاهلي أكثر من مجاورته اسماعيل بن يسار .

ولا يخلو نقده من سخر لطيف ، أو تهكّم لاذع ، شأنه في بيت أبي نواس :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هواكِ ، لعل الفضل يجمع بيننا

قال : « فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث ، الذي

obeikandl.com

لو رامه حمار الكُساح[1] لأدركه . »

ونظم في رسالة التوابع والزوابع أبياتاً في الغزل على لسان بغل ، وأخرى مثلها على لسان حمار ؛ فلما عُرضت عليه للمفاضلة بين الشاعرين ، وسمع قول الحمار :

وما نلتُ منها نائلاً ، غير أنني ،
اذا هي راثت ، رُثتُ حيث تروثُ

قال : « والله ، ان للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وأنف الناقة هو تابع أبي القاسم الافليلي .

فأبو عامر من خيرة النُقّاد في العصر القديم ، وله نظرات جريئة يُحمد عليها ، وإن لمْ تسلم من الغمز والتجريح ، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبحثه في تأثير الألفاظ ، والجمال الذي لا يوصف ؛ وسيمرّ بنا شيء غير قليل من نقده وسخره في رسالة التوابع والزوابع .

---

[1] الكساح : داء للابل ، أو هو الكساحة أي تعطل القوى في اليدين والرجلين ، وأكثر ما يستعمل في الرجلين .

obeikandl.com

رسالة

التوابع والزوابع

نسختها

لم يُعثر الى الآن على مخطوطة لرسالة التوابع والزوابع ، وانما بلغ الينا منها ما أثبته أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني الأندلسي في القسم الأول من كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، فرأينا أن نقسمه ، بحسب أغراضه ، الى مدخل وأربعة فصول ، وجعلنا عنوان الفصل الأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتّاب ، والثالث : نُقّاد الجن ، والرابع : حيوان الجن . وهي عناوين تقبل الزيادة بعد العثور على نسخة كاملة لهذه الرسالة الحسناء .

والقسم الأول من كتاب الذخيرة طبع في مجلدين بالقاهرة ، أولهما سنة ١٩٣٩ ، وتولت نشره كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول ، وفيه فصول التوابع والزوابع ، فاعتمدنا عليه في اخراجها كتاباً على حدة .

ويخبرنا الدكتور طه حسين في مقدمة الكتاب أن الجامعة

obeikandl.com

كلفت المستشرق لاوي بروفنسال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية في كلية الآداب أن يهيئوا نص كتاب الذخيرة للطبع ، معارضين ما اجتمع لهم من النسخ ، مصححين ما لا بدّ من تصحيحه . ثم ألفت لجنة من أساتذة الكلية : طه حسين ، أحمد أمين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الحميد العبادي ، عبد الوهاب عزام ، لاوي بروفنسال ، للنظر في ما أعدّت اللجنة الاولى من النص تقرأه منفردة ومجتمعة ، حتى اذا أقرته ، أذنت بطبعه . وعلى هذا النحو أُخرج القسم الاول من الذخيرة ، مصحّحاً ومحرّكاً ومطبوعاً طبعاً جميلاً .

على أننا ، عندما حملنا النفس على نشر رسالة التوابع والزوابع ، وجدنا أن اللجنة لم تُعنَ بشرح الألفاظ الغريبة والاصطلاحات الأندلسية ، بل أرجأت ذلك الى أن تنتهي من نشر بقية الأقسام . فتولينا شرح الغريب من اللفظ ، وفتح المغلق من المعنى ، وتعريف أسماء الأعلام ، وايضاح التلميحات التاريخية ، تسهيلاً على عامة القراء ، وتخفيفاً عن خاصتهم . ووقعنا على خطإٍ غير قليل في الشكل ، يحسن بنا أن نرد معظمه على الطابع ، فأصلحناه وقوّمنا منآده ، دفعاً للالتباس والتشويه .

ولم يقف عملنا عند هذا الحد في اخراج هذه الرسالة ، فان

الجهد الذي بذلته اللجنة في معارضة نسخ الذخيرة، وتصحيح النص، لم يبلغ الى ما أرادته من رد الكتاب الى الصواب، كما يقول الدكتور طه حسين في المقدمة. وهذا ما تبيّناه في اثناء دراستنا لآثار ابن شهيد، إذ عرضت لنا ألفاظ مغلوط فيها أو محرفة، عجبنا كيف جاوزتها اللجنة دون أن تدقق في معانيها، أو تراجعها في مظانها، ورأينا أن نستدرك ما فاتها. فمما صحّحناه بتتبع المعنى، وتقريب صور الألفاظ بعضها الى بعض، قول أبي عامر في وصف الصيد:

نُمَسِّح بالجَودان منه أكُفَّنا،
اذا ما اقتنصنا منه غيرَ قليلِ

والجودان لا معنى له، وإنما أراد الحَوذان، وهو نبت نَورُه أصفر، وقد وَصف، قبل هذا البيت، أبكار النَور، وشبهها برداء عروس، وهنا يذكر تمسيح الأيدي بها من لحم الطرائد. ومثل ذلك قوله: «فضرب زهير الأدهم بالسوط، فسار بنا في قَنْتِه.» ولا وجه للقنت يُردُّ اليه الكلام، فضلًا عن إشكال استعماله بمعنى القنوت، وصوابه القَنَنِ، أي سَنَن الطريق ونهجه.

ومما صحّحناه بالرجوع الى كتب الأدب ودواوين الشعراء، قول طرفة:

لسُعدى بحِزّان الشّديف طلولُ

والشديف لا ذكر له بين أسمـاء المواضع ، وهو في ديوان طرفة الشُّرَيف بالراء المهملة والتصغير ؛ ذكر صاحب القاموس أنه أعـلى جبل ببلاد العرب ، وأنه قد صعده ؛ وذكره ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنـه يُطلق أيضاً عـلى ماء لبني نُمير بنجد أو وادٍ بنجد ، وعلى حصن من حصون زبيد باليمن .

ومنه قول أبي نواس :

لمن دِمَنٌ تزداد طيبَ نسيمٍ،
على طيبِ ما أقْوَت،وحسنَ رسومِ

ووجه الكلام : «عـلى طول مـا أقوت» وهكذا رواية الديوان .

وقال أبو عامر بن شهيد :

أصَفيحٌ شِيمَ ، أم برقٌ بدا،
أم سنا المحبوب أورَى أزْنُدَا ؟

وصوابه ، كما في مطمح الأنفس ، أصباحٌ شِيمَ . وكذلك قوله في القصيدة نفسها :

قالت : هبْ لي ، يا حبيبي ، قبلةً ،
تَشفِ من غمّك تبريحَ الصَّدى

ولا معنى لغمك هنا ، وإنما هي عمّك ، كما في مطمح الأنفس .

وجاء في رسالة الحلواء : « فأمرت الحلواني بابتياع أرطال منها . » ورواية يتيمة الدهر : « فأمرت الغلام . » وهي الصواب .

ومرت بنا ألفاظ يستقيم بها المعنى على اختلاف روايتها ، مثل قوله : « أعذبُ من ألسِنة الأحبة . » فآثرنا رواية يتيمة الدهر ، وهي : « أعذب من ريق الأحبة . » وألفاظ أخذناها على وجه التقريب ، ولم ينشرح لها صدرنا ، كما في قوله : « وتحركتْ لهم حركة مشولم . » وهو ، كما يظهر ، من اصطلاح أهل المغرب ، وليس له ذكر في المعجمات إلاّ معجم دوزي ، فانه أثبت لفظة مَشْولين ، وقال إن معناها فتيان ، وان واحدها مَشْوَلُ ، كمَقعد ، على خلاف القياس . فلعل في مشولم تحريفاً ، والمراد مشولين ، لأن المعنى يرتاح اليها بعض الشيء . أو لعلها شَولْم ، إشارة الى الرقية التي خدع الغني بها اللصوص الذين جاؤوا بيته ليلاً ، وقصتهم في باب برزويه من كليلة ودمنة .

وكذلك لفظة شوابير ، في قوله يصف الحلواء : « مُجاجة الزنابير ، أُجريَت على شوابير . » فان كتب اللغة لم تذكرها ،

وهي حضرية مولّدة ، وانما ذكرها دوزي في معجمه ، وأورد لها معنى لا يطابقها في هذا الموضع ، فشرحناها بالاستناد الى بعض تعريفه لها ، ثم الى ما نعلمه عنها من اصطلاح العامة عندنا ؛ فقلنا : هي قِطَع لها شكل الزاوية ، كما يُرى في تقطيع الحلواء.

فالجهود المحمودة التي بذلتها لجنة كلية الآداب في مصر لتصحيح نص الذخيرة ، لم تصرف عنا مشقة البحث والتنقيب ، والشرح والتخريج ، لنشر رسالة التوابع والزوابع مصحّحة منقحة ، مذلّلة العِقاب ، قريبة التناول .

تاريخها

ليس في أخبار ابن شهيد ذكر للسنة التي وضع فيها رسالة التوابع والزوابع ؛ غير أن المستشرق بروكلمن يزعم أنها صُنّفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . ومعلوم أن أبا العلاء ألّف رسالته الالهية في اثناء عزلته سنة ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) فيكون أبو عامر قد أنشأ التوابع والزوابع سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) على رأي العالم الالماني .

فأما أن تكون رسالة ابن شهيد كُتبت قبل رسالة المعري فهذا لا إشكال فيه ، لأن أبا عامر توفي سنة ٤٢٦ هـ أي بعد ظهور رسالة الغفران بنحو سنتين ؛ وكان قد اعتلّ قبلها بضع

سنوات ، وغلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ مدة سبعة أشهر الى أن مات في آخر جمادى الأولى من السنة التالية . ومع أنه لم يعطّل لسانه ، فينقطع عن قول الشعر ، إلاّ أن ما كان ينتابه من الأوجاع العظيمة ، وضغط الأنفاس ، وعدم الصبر ، خليق بأن يمنعه عن القيام بعمل أدبي طويل النفَس كرسالة التوابع والزوابع . ولكن الإشكال في تأريخ السنة التي أنشئت فيها ، والمستشرق بروكلمن لم يدلنا على أي شيء اعتمد في قوله إنها وُضعت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . فرأينا أن نتقرّى هذا البحث في فصولها التي بين أيدينا ، لعلنا نصل الى نتيجة مرضية ولو قليلاً .

فأول ما يبدو لنا في مدخلها تبجح أبي عامر في خطابه لأبي بكر بن حزم ، لأنه « أوتي الحُكم صبيّاً ، وهزّ بجذع نخلة الكلام ، فاسّاقطَ عليه رُطَباً جنيّاً . » فنعلم أن صاحبنا كان فتى عندما توفر على تصنيف رسالته . ونجد هذه الاشارة الى شبابه في قول تابع المتنبي عندما سمع شعره : « ان امتدّ به طلَق العُمُر ، فلا بدّ أن ينفث بدُرر ، وما أراه الا سيُحتَضَر ، بين قريحة كالجمر ، وهمّةٍ تضع أخمَصه على مَفرِق البدر . » ثم في حديثه مع بغلة أبي عيسى : « فقالت : ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : كما ترين . قالت : شبّ عمرو عن الطوق ! »

فهذه الاشارات الى صباه أو الى شبابه أو الى مجاوزته سن الحداثة ، لا تأذن لنا بأن نجعل رسالة التوابع والزوابع وليدة أواخر حياته ، لأنها من دلائل فتوّته ؛ فعلينا أن نسأل فصول الكتاب عن السنة التي وُلدت فيها ، فقد تكون أهدى لنا من كلام المؤرخين .

ومن حسن الحظ أن أبا عامر ضمّن رسالته هذه نُتَفاً من أخباره وشؤونه ، وأورد فيها طائفة من أشعاره ، وذكر أشخاصاً ، منهم قضوا نحبهم قبل تأليفها ، ومنهم كانوا أحياء . على أنه لم يورد خبراً يتصل بكهولته ، ولا شعراً قاله في مرضه أو بعد فتور شبابه . فمن أخباره ما يتعلق بحداثته وطلبه العلم : « فاتّبعت الدواوين ، وجلست الى الأساتيذ ، فنبض لي عرق الفهم ، ودرّ لي شريان العلم بمواد روحانية . » ومنها ما يتناول خصومه الذين اتهموا شعره وطعنوا عليه عند المستعين ؛ وكانت خلافته من سنة ٤٠٣ ﻫ الى سنة ٤٠٧ ﻫ .

بيدَ أن الرسالة كُتبت بعد هذا العهد ، كما تدل الأشعار المدونة فيها ، على اختلاف أغراضها . فقصيدته التي قالها ، وهو في سجن العلويين ، يصح أن تكون في خلافة علي بن حمود (٤٠٧ — ٤٠٨) ، وهذا ما نرجحه ، لما عُرف به من الشدة والتنكيل والمصادرة ، واعتقال الذين كانوا في خدمة المستعين .

obeikandi.com

أو في خلافة أخيه القاسم التي امتدّت الى أن جاء يحيى بن علي ينازع عمه المُلك سنة ٤١٢ هـ . فاستولى على قرطبة ، وتلقب بالمعتلي ؛ واتصل بـه أبو عامر . غير أن القاسم عـاد الى قرطبة وملكها سنة ٤١٣ هـ وهرب يحيى الى مـالقة ، فربمـا سُجن ابن شهيد في تلك السنة لحظوته عنده ، وكثرة مدائحه فيه . واذا لم يصحّ ذلك ، وصحّ سجنه في زمن علي ، فبعض مدحه ليحيى مرويّ في التوابع والزوابع مما يدل على أنهـا وُضعت بعد سنة ٤١٢ . وفيهـا أيضاً رثاؤه لأبي عبيدة حسان بن مالك ؛ وهذا استوزره المستظهر عبـد الرحمن الخامس سنة ٤١٤ هـ ، كما يخبرنا الفتح بن خاقـان في «مطمح الأنفس» ولكنه لم يذكر سنة وفاته . وكذلك قصيدته التي يمدح بهـا صديقه أبا محمد بن حزم ، ويطري تأويلاته الشافعية :

فسلّ من التأويلِ فيها مهنّداً ،
أخو شافعيّات ، كريمُ العناصرِ

وابن حزم كان يميل الى المذهب الشافعي في عنفوان شبابه ، فتعصّب له وناضل عنه ، حتى وُسِم به ونُسب اليه . ولما سقطت الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) هجر قريته مَنت ليشَم من أعمال لَبْلة (Niebla) وشخص الى المريّة (Alméria) فراراً من الحرب الأهلية ، وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة .

ثم استقامت حاله في خلافة المستعين ، لمغالاته في التشيع لبني أمية ، حتى اذا قُتِل المستعين ، اعتُقِل وحُبِس بضعة أشهر . وذهب بعدها الى بلنسية ، فاتصل بالمرتضى عبد الرحمن الرابع الخليفة الأموي ، الى أن قُتِل سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) فقفل الى بلده . وفي سنة ٤١٤ هـ استوزره المستظهر عبد الرحمن الخامس مدة خلافته القصيرة . فمدحُ ابن شهيد له بشافعيّاته ينبغي أن يكون خلال تلك السنوات ، لأن ابن حزم عدل عن المذهب الشافعي بعد ذياده المنيف عنه ، فنراه في شاطبة سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) يصنف كتاب طوق الحمامة ، وكتاب الفِصَل ، في الملل والأهواء والنِحَل ، ويتبع مذهب الظاهرية ، آخذاً برأي داود بن علي وأتباعه ، منحرفاً عن غيره من المذاهب .

فالعدد الذي اعتمده المستشرق بروكلمن بيِّن الغلط ، لأن القصائد التي أشرنا اليها ، وذكرنا أنها وردت في رسالة التوابع والزوابع ، لا تسمح لنا بأن نجعل ولادتها سنة ٤٠٤ هـ ؛ فهي انما أبصرَت النور بعد سنة ٤١٤ هـ ، ولم تتقدم رسالة الغفران بعشرين سنة ، بل ، على ما بدا لنا ، بتسع سنوات أو أقل ، فقد كتبها أبو عامر في قوة شبابه بعدما نيّف على الثلاثين .

عرفنـا أن أبا عامر كان كثير الخصوم والحسّاد ، ولقي منهم عنتاً وأذية وضيماً لم يصبر له ، فانبرى يواقعهم ويناضلهم ، وينتقص أدبهم ، ويبسط آراءه في المنظوم والمنثور ، والفن والجمال . فرسالة التوابع والزوابع لا تعدو هذا الغرض الذي يرمي اليـه ، وهو الطعن على أنداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ؛ ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نُقّاده ؛ ثم اظهـار محـاسنه وفضائله في المتقدمين والمتأخرين .

فقد عرض لمتـابيه عند المستعين ، منددا بضعفهم وعجزهم عن لحاقه ؛ وألحّ بالإزراء على أبي القاسم الإفليلي ، فنفس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه الى مبـاراته بالوصف شعراً ونثراً . وسخر بأدباء بلده ، ونسب الغباوة الى أهل زمـانه ، وعرّاهم من صحة اللغة ، وحسن البيان . وجعـل الإوزة الحمقاء تابعة لشيخ من النحاة ؛ وقال لبغلة أبي عيسى : « من اخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى الى الوزارة . »

ومـا تجشم الرحلة الأدبية الى وادي عبقر الا ليلقى توابع الشعراء والكتّاب ، وينـال منهم اجـازة النظم والخطابة ؛

فأجازه امرؤ القيس ، وطرفة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام ، والبحتري ، وأبو نواس ، وأبو الطيّب ، وعبد الحميد ، والجاحظ ، وبديع الزمان ، وسواهم . وأسمعهم من أشعاره ورسائله ، وفاخرهم بإعراق بيته في الشعر ، ونقض أقوالهم في أدبه ، وإنما هي أقوال نُقّاده ، وعارضهم في قصائدهم وأوصافهم ، فقال أبو نواس : « هذا شيء لم نُلهَمه نحن . » وقال أبو الطيّب : « ان امتدّ به طلَق العُمُر ، فسوف ينفث بدرر . » وقال عبد الحميد والجاحظ : « اذهب فانك شاعر وخطيب . » وضرب صاحب بديع الزمان الأرض برجله ، عندما سمع منه وصف الماء ، فانفرجت له ، فغاب فيها عن العيان ، لما لحقه من الخزي والانكسار .

فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أبا عامر شديد الإنحاء على خصمائه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه ، يناقش الشرق والغرب ، والقديم والمحدَث ، ويدفع حملات النُقّاد والمتعنتين ، ولا يرضى أن يُجاز إلا شاعراً وخطيباً على السواء .

أقسامها

قسمنا رسالة التوابع والزوابع الى مدخل وأربعة فصول ، ونشرع الآن في تعريف هذه الأقسام تسهيلاً لجمهرة القراء .

يتحدث أبو عامر في مدخل رسالته الى أبي بكر بن حزم ، فيذكر له كيف تعلم ونبض له عرق الفهم ، بقليل من المطالعة . ثم ينتقل الى خبر حبيب له مات ، فأخذ في رثائه ، فأرتج عليه ، واذا بجني اسمه زهير بن نمير يتصوّر له ، ويلقي اليه بتتمة الشعر ، رغبة في اصطفائه ، كما تصطفي التوابع خلانها ، فتتأكد بينهما الصحبة ، فأصبح ، كلما سُدّت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لقنها عنه ، فيمثل له ، ويوحي اليه .

الفصل الأول – توابع الشعراء

يسأل ابو عامر صاحبه أن يزيره أرض التوابع والزوابع ، فيطير به على متن جواده ، حتى ينزل وادي الأرواح ، فيزور صاحب امرىء القيس ، وصاحب طرفة من الجاهليين ، ويرغب في التحول الى العباسيين مبتدئاً بتابع أبي تمام ، فيلقى في طريقه شيطان قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية . ثم يصير الى توابع الطائيين وشاعر الخمرة ، وينتهي به المطاف عند « خاتمة القوم » صاحب أبي الطيب المتنبي . وفي زياراته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ، ويأخذ الاجازة منهم .

الفصل الثاني — توابع الكتاب

ويرغب أبو عامر في لقاء الكتّاب ، ويدعوهم الخطباء ، ولولا شوقه الى الشعراء ، لكانوا عنده أولى بالتقديم . فيسير اليهم مع زهير ، وقد اجتمعوا في بعض المروج للمذاكرة ، وفيهم تابع الجاحظ وتابع عبد الحميد . فيأخذان عليه شغفه بالسجع ، فيدافع عن نفسه ، فيجد من صاحب عبد الحميد عنفاً ، فيقابله بالطعن على بداوة أسلوبه ، فيبتسم له ويباسطه . ثم يقرأ عليهما رسالة الحلواء ، فيضحكان منها ، ويستحسنانها . ويشكو اليهما أمر حساده ، عند المستعين ، وفيهم أبو القاسم الافليلي ، فيتصدى له تابعه بالنقد والتجريح ، فيردُّ عليه ، وينفسه بأوصافه . واذا بصاحب بديع الزمان يدخل بينهما ، فيعارضه أبو عامر في وصف الماء ، حتى يخجله . ثم يجيزه صاحبا الجاحظ وعبد الحميد شاعراً وخطيباً .

الفصل الثالث — نقاد الجن

يحضر أبو عامر وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن ، فيدور الكلام على بيت للنابغة تداول الشعراء معناه من بعده ، ولم يلحقوه ، وينشد بعض الجن أبياتاً في هذا المعنى ، يتسامى بها

على النابغة ، وانما هي من نظم أبي عامر . ثم يبحث الجني في الطريقة التي تحسن بها سرقة الشعر دون أن يفتضح صاحبها ؛ ويسأل أبا عامر أن يُسمعه كلاماً يرعى تِلاع الفصاحة ككلام أبي الطيّب ، فينشده أمثلة من قصائده ، ويُدلّ بأشعار أجداده وأبيه وعمه وأخيه .

الفصل الرابع – حيوان الجن

يسير أبو عامر وزهير في أرض التوابع والزوابع ، فيشرفان على نادٍ لحمير الجن وبغالهم ، وقد وقع الخلاف بينها في شعرين لحمار وبغل من عشاقها ، فتدعوه للحكم فيهما ، ويعرف من بينهن بغلة أبي عيسى ، فيتحدث اليها ، ويتذكران دار الإنس . ثم تعترضه إوزة في بركة ماء ، هي تابعة لبعض الشيوخ ، تريد مناظرته في النحو والغريب ، فيردعها ، ويذكّرها بسخفها وحمقها ، وينتهي عندها ما بلغ الينا من رسالة التوابع والزوابع .

هي ورسالة الغفران

أفضى بنا البحث في تاريخ رسالة التوابع والزوابع الى الاستدلال على أنها تقدمت رسالة الغفران ببضع سنوات ؛ فغير

مستنكر أن يكون أبو العلاء قد اطلع عليها ، فنبّهت فيه فكرة الرحلة السماوية ، ثم جاءت رسالة ابن القارح تدعوه الى تصنيفها . ولا يدفع هذا الرأيَ بُعدُ الشقة بين قرطبة والمعرة ، وقلة انتشار الأدب الأندلسي في الشرق ؛ فان ابن شُهيد لم يكن من المغمورين عند المشارِقة ، على تعصبهم لأدبهم ، واستخفافهم بأدب المغاربة . فقد روى أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر طائفة صالحة من كلامه . والثعالبي وُلد سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) أي قبل ولادة أبي عامر باثنتين وثلاثين سنة ؛ وتوفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) أي بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي عامر ؛ فهو معاصر له ولأبي العلاء . وصنّف كتابه يتيمة الدهر ، في صيغته الأولى ، سنة ٣٨٤ هـ (٩٤٤ م) والعمر في اقباله ، والشباب بمائه ، كما يقول في مقدمته . ثم أعاد النظر فيه ، فلم ترضَ نفسه عنه ، فاستأنف العمل ، وما زال يبني وينقض ، ويزيد وينقص ، ويمحو ويثبت ، حتى أخرج نسخته الأخيرة من بين النسخ الكثيرة ، ولم يتم له هذا الأمر إلاّ بعدما أدرك عصر السن والحنكة ، فتسنى له أن يدوّن من آثار ابن شهيد بعض مدائحه في يحيى المعتلي سنة ٤١٢ هـ ، وشيئاً من رثائه لأبي عبيدة بن مالك وزير المستظهر سنة ٤١٤ هـ ، وأوصافه للحلواء ، والبرغوث والثعلب ، وهي واردة في رسالة التوابع والزوابع . وإذا كان أبو عامر قد أنشأها قبل تصنيف رسالته هذه ، فإن

وصفه للماء ، ورواه الثعالبي ، هو من ضُلب التوابع والزوابع كما نرجح ، وضعه خصوصاً لينافس بـه صاحب بديع الزمان ؛ فتكون هذه الرسالة قد هاجرت الى المشرق ، في حياة مؤلفها ، مع غيرها من آثاره ، وأخذ منها أبو منصور الى يتيمته . فمن المعقول أن يقف عليها أبو العلاء المعري فيتأثر بها ، وهو ، على ما نعرفه ، مغرى بالقراءة ، كلِف بالدرس والاطلاع .

ولكن لا نزعم أنه انسحب على أذيالها في رسالة الغفران ، فان الشبه الذي نجـده بين الرسالتين لا يحرم أبا العـلاء حق التأليف ، وكلتاهما تسير في طريقٍ معبَّد لها ، وترمي الى هدف مخصوص بهـا . فاذا قصد الكاتبان عالم الأرواح في قصتيهما ، فطريق أبي عامر قادته الى وادي الجن ، وطريق المعري قادته الى الآخرة . واذا توافقـا في الطواف عـلى الشعراء ، وعقد مجـالس الأدب والمنـاظرة والنقد ، فان أبا عامر توخى هدم خصومه وحساده ، وبنـاء فضله ونبوغه ، وأما أبو العـلاء فقد شاء أن يعبث بعقيدة الغفران ، ويتهكم أهلَ عصره في تصورهم الجنّةَ حافلة بالملذات المحسوسة ، والنارَ مشبعةً بألوان العذاب والتنكيل ، وان لم يفته الادلال بعلمه وسعة اطلاعه .

ووجّه المعري رسالته الى رجـل يُعرَف بابن القـارح ، كما وجّه ابن شهيد رسالته الى رجـل يدعى أبا بكر بن حزم ؛ إلاّ

أن الكاتب الشامي جعل صاحبه بطلاً لقصته ، تدور عليه حوادثها ؛ ولم يذكر الكاتب الأندلسي صاحبه إلاّ في بدء رسالته ، ثم سكت عنه ، وأقام من شخصه بطلاً للقصة يتعهد حوادثها بنفسه ، مستصحباً تابعه زهير بن نمير دون أن يوليه عملاً يستحق الذكر ، غير التعريف بالأشخاص والأماكن .

وبنى موضوعه على ما عرف وشاهد من مجالس الأدب والمناظرة في زمانه وقبل زمانه ؛ وعلى ما بلغ اليه من عقيدة العرب الأقدمين ، وهي أن لكل شاعر رئيّاً من الجانّ يحبه ، ويتبعه ، ويوحي اليه . غير أنه لم يوفّق في تصوير عالم الجن ، وغرائب أرضه وخلقه ، وما اشتهر عنهم من القدرة على الحَوْلة والإتيان بالخوارق التي يعجز عنها الأناسيّ . فما نرى من أحوالهم العجيبة إلاّ لمحات ضئيلة لا يغني بها أدب الخرافات والأساطير ، كما في كلامه على جواد زهير بن نُمَير ، وكيف طار بهما الى أرض التوابع . أو في حديثه عن تابع أبي تمام : « فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفِلقة القمر ، ثم اشتق الهواءَ صاعداً الينا من قعرها ، حتى استوى معنا . » أو قوله في زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان : « فلما انتهيتُ في الصِفة ، ضرب زبدة الحِقَب الأرض برجله ، فانفرجت له عن مثل بَرَهوت ، وتدهدى اليها ، واجتمعت عليه ، وغابت عينه . » ومثل ذلك أخبار حيوانات الجن في اجتماعها وأحاديثها . فعالم

ابن شهيد إنسيّ ، وان أضافه الى جِنّة عبقر ؛ وتوابع الشعراء والكتّاب جديرة بأن تكون مُثُلًا لأصحابها ، لا أن تُعَدّ في الجِنّان ، فليس في وادي الأرواح شيء يختلف عما في وادينا من المخلوقات الحيّة ، وغير الحيّة ، سوى ما أشرنا اليه ، وسوى أن الحيوان عاقل ناطق كما في كليلة ودمنة ، وشاعر عاشق متغزل كما في عبث بشار .

واذا قلنا إن هذه الأرواح من عالَم المُثُل ، فما نريد به الإفراط على أفلاطون وأتباعه من فلاسفة العرب ، وإنما نقصد أن أبا عامر ألبس التوابع أثواب أصحابها ، فجاءت على غِرار المُثُل الأفلاطونية في بعض حدودها ، وأبانت عن شخصيات الشعراء والكتّاب في الصفات والأخلاق والآداب . فصاحب امرىء القيس فارس على فرس شقراء تلتهب ، في وادٍ ذي دوح تتكسّر أشجاره ، وتترنم أطياره ، كدارة جُلجُل ؛ وتابع قيس ابن الخطيم فارس كأنه الأسد ، غضوب يُخشى شره ، ويُتّقى تهديده ، وكذلك كان الشاعر الجاهلي في بطشه وانتقامه . ونجد رئيّ أبي تمام يعنى بالمدح والرثاء كصاحبه الطائي ، ويوصي أبا عامر ألاّ يكدّ قريحته ، اذا دعته النفس الى القول ؛ وأن يُنقّح شعره ، بعد جَمام ثلاثة أيام من نظمه ، فيذكرنا بوصية أبي تمام للبحتري . ونسمع قرع النواقيس بذات الاكيراح من دير حنة ؛ وتبدو الرهابين مشدّدة بالزنانير ، بيض اللحى والحواجب ، قد

obeikandi.com

قبضت على العكاكيز ؛ ثم نشرف على بيت قد اصطفّت دنانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسَبَلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وغلبت عليه نشوة الراح فما يستفيق إلاّ على صوت ابن شهيد ينشده خمرية ، فيستزيده ، ثم يسأله إنشاد قطعة من مجونه . وما ذاك الشيخ سوى حسن الدنان شيطان أبي نواس . ونرى صاحب المتنبي فارساً على فرس بيضاء ، ينظر من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعُجباً ، ولا يرضى الشعرَ إلاّ متيناً شديد الأسر ، شأنَ أبي الطيِّب . ويطل علينا شيخ أصلع ، جاحظ العين اليُمنى ، عليه قلنسوة طويلة ، تذكرنا بطويلة أبي عثمان في حضرة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ؛ والى جنبه شيخ آخر ، هو صاحب عبد الحميد ، وكلاهما يكره السجع والتكلف . فاذا فات أبا عامر بن شهيد براعةُ التصوير لعالم الجن ، فما فاته إحسانُ تمثيل الأدباء في أشخاص توابعهم ، وهذا شيء يحمد عليه .

ونتبين من خلال طوافه ومساجلاته ، إجلاله لبعض الشعراء والكتّاب ، وجرأته على بعضهم الآخر ، فبينا نراه يلقى عُتَيْبَة ابن نوفل صاحب امرىء القيس ، فيتلكأ عن الإنشاد في حضرته ، ويهم بالحيصة ، ثم ينظر الى حسن الدنان ، فتدركه مهابته ، ويأخذ في تعظيمه لمكانه من العلم والشعر ، نجده يتعرض لأبي الطبع تابع البحتري ، فيباريه في القريض ، فيسودّ وجهه ،

ويكرّ راجعاً الى ناوَرْدِه دون أن يلثم ؛ وينافس زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان في وصف الماء ، فيشقّ الأرض برجله ، فتبتلعه ، من شدة الخجل . وهو في الغالب يستطيل على معاصريه أكثر منه على المتقدمين ، ولأهل الجاهلية في نفسه حرمة ووقار .

وأما أبو العلاء فانه بنى موضوع رسالة الغفران على ما ذُكر من وصف الجنة والنار وموقف الحساب ، في القرآن والحديث ، وتصانيف المتصوفة مثل كتاب التوهم للمحاسبي ، وما جاء من القصص والشروح والتفصيلات على خبر المعراج . فكان في تصوير عالم الآخرة أبرع من أبي عامر في تصوير عالم الجن ، وان يكن الخيال ، عند هذا وذاك ، ينساق الى الاتّباع أكثر منه الى الابداع ؛ فظهرت الجنة بأنهارها وأشجارها ، وطعامها وشرابها ، وجمال حُورها ، من الصالحات الناجيات ، وفيهن من كانت دميمة سوداء ، فأصبحت في الجنان حوراء عيناء ، شفافة بيضاء ، أو من المنشآت في الخلد أبكاراً عُرُباً أتراباً ، تنشقّ عنهن الأثمار ، فيخرجن منها كواعب يرقصن ، فتهتز أرجاء الجنة . والصالحون متكئون على مفارش من السندس ، أو يحملهم الحور والولدان على سُرُر من زبرجد أو عسجد ، وهم مستلقون على ظهورهم ، متنعّمون بالراحة الكبرى . فاذا رأوا عنقوداً من العنب أو غيره ، انقضب عن الشجرة بمشيئة

obeikandl.com

الله ، وحملته القدرة الى أفواههم ، إذ لا همّ لها إلا تلبية شهوات الأبرار الناجين .

وموقف الحشر شديد الهول والظمإ ، كثير الزحام ، لا يدخل الجنة فيه إلا من غُفِر له ، وخُتم عمله بالتوبة في الديوان الأعظم ، وأُعطي جواز المرور ، فينغب من الحوض نغبات لا ظمأ بعدها ، ثم يعبر الصراط الى جنّات النعيم .

ويرى الناظر من المطّلَع الى النار إبليس يضطرب في الأغلال والسلاسل ، ومقامعُ الحديد تأخذه من أيدي الزبانية . فاذا التمس منك ، وقد نجوتَ بإذن الله ، حاجة ، لا تستطيعها له ، لأن الآية سبقت في أهل النار : « ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، أن أفيضوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله . قالوا : إنّ الله حرّمها على الكافرين ! » وهذا صخر أخو الخنساء كالجبل الشامخ ، تضطرم النار في رأسه : كأنه علم في رأسه نار . وذاك بشار قد أُعطي عينين لينظر الى ما نزل به من النكال ، فاذا أغمضهما حتى لا ينظر ، فتحهما الزبانية بكلاليب من نار . وهناك عنترة يتلدّد في السعير ، والأخطل يتضور ويزفر زفرةً تعجب لها الزبانية . فرسالة الغفران لا تشتمل على أبلغ من ذلك في وصف النار والعذاب ، وانما هي أدقّ تصويراً للجنة وموقف الحساب .

وأقام أبو العلاء في الفردوس المآدب الأنيقة ، ومجالس اللهو والشراب ، والرقص والغناء ، على ما هو مألوف في الحياة الدنيا ، مع ما استفاده من أوصاف الكتب الدينية ، أو زيّنه بخياله وفنه ، كذكر طاووس الجنة ، وانبعاثه حيّاً بعد ذبحه وأكله ، أو حديثه عن شجرة الجوز ، وانشقاق كل جوزة منها عن أربع جَوارٍ يرقصن على الأبيات المنسوبة الى الخليل .

وعَقدَ حلقات الأدب والمذاكرة شأنَ أبي عامر في التوابع والزوابع ، فطوّف صاحبَه ابن القارح على الشعراء وعلماء اللغة ، ينظر في شؤونهم وأحوالهم ، ويسألهم : بمَ غُفِر لهم ، ويستفسرهم أموراً تختص بهم ، أو يوقع بينهم المشاحّة والمناظرة ، على مثال ما تقع بين الأدباء في الدار العاجلة ، مع أن الجنة رحضت ما في صدورهم من الحقد والشحناء . فالأعشى صار عشاه حَوَراً ، والخناءُ ظهره قِواماً ؛ وقد شفع له الرسول ، لحرمة يمتّ بها اليه في مدحه ، فغُفر له ، وأُدخِل الجنان على أن لا يشرب فيها خمراً . وزهير شابّ كالزهرة الجنيّة ، كأنه ما سئم تكاليف الحياة ، ولا عُمّر تسعين حجّة ؛ غُفِر له لايمانه بالله ، قبل الاسلام ، ووصيته لبنيه بأن يطيعوا القائم الذي يدعوهم الى عبادة الله . وعَبيد بن الأبرص غُفر له ببيت من الشعر يقول فيه : « وسائلُ الله لا يخيبُ . » فكثر رواته وحُفّاظه ، وما زال يُنشَد ويُحفظ ، حتى أسقط العقوبة

obeikandl.com

عن صاحبه ، وشملته الرحمة ببركته . وعديّ بن زيد مات نصرانيّاً فغُفر له ، ولم يدرك الاسلام لتقوم الحجة عليه . وهو صاحب قنص وهو في الجنة ، كما كان في الدار الفانية . ويسأله ابن القارح عن إعراب بيت له استشهد به سيبويه ، فيجيبه : « دعني من هذه الأباطيل ! » وكذلك كان جواب بشار من أسفل الجحيم ، عندما سأله عن تسكين باء السُبْد في قافيته ، فقال : « دعني من أباطيلك ، فاني لمشغول عنك ! » ويجتمع النابغة الجعدي والأعشى في مجلس غناء ، فتحدث بينهما مُلاحاة أدبية ، يتشاتمان فيها ، ويتنازعان فضل الشاعرية والحسب ، فيستوقفهما ابن القارح ، ويقول لهما : « لا عربدة في الجنان . »

ويشتد أبو العلاء في النقد والغمز على المحدَثين أكثر منه على الأقدمين ؛ فاذا عاب الإسناد في قافية عمرو بن كلثوم ، لم يزد على أن يقول بلسان ابن القارح : « لوددت أنك لم تساند في قولك . » ويأبى أن ينسب الى امرىء القيس أبياتاً من التسميط ركيكة ، ظاهرة النحل ، فيجعله ينكرها فيقول : « والله ، ما سمعت هذا قط . » مع أنه لم يترفق في نقد بشار ، على اعجابه بشعره ، ولا أولى أبا تمام شيئاً من عطفه ، حين ترك عنترة يقول في كلامه : « أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطقَ به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب . »

وكان لأبي علي الفارسي نصيب من نقده وسخره . فألّب عليه جماعة من الأدباء في الجنة ، تلومه وتمقته لتأويلاته المستهجنة في اللغة والنحو ، فينقذه ابن القارح منهم ، ويبعدهم عنه .

وأنزل سخطه على الرجّازين ، فجعل بيوتهم دون سائر البيوت السماوية ارتفاعاً ، كما تنخفض أبيات الرجز عن أبيات القصيد ؛ وعمد الى صاحبهم رؤبة بن العجّاج ، فأكثر الإنحاء عليه ، وعاب قوافيه النافرة ، وصلابة ألفاظه ، وضيق أغراضه ومعانيه .

وللجن في رسالة الغفران موضع باسم جنة العفاريت ، ليس عليها النور الشعشعاني كجنة الأنامي ، وإنما هي أدحال وغماليل ، وأهلها يدركهم المشيب ، مع أن سائر أهل الجنة شباب ؛ لأن الجن أُعطوا الحَوَلة في الدار الماضية ، فكانوا يتصورون ، على مشيئتهم ، حيّة أو عصفوراً أو حمامة ، فحُرموا الشباب ، وفيضَ النور الالهي في الجنة ، وصُوِّر بنو آدم فيها أحسن تصوير . وهنا يأتي أبو العلاء على ذكر أشياء من خصائص الجن كتحولات أبي هدرش ، ورجم العفاريت بالشهب المحرقة ، بما لم يُعنَ به أبو عامر في رسالته ، إلا أنه لم يرفع شأن التوابع مثله ، بل عدَّهم أطيفالاً من الجن ، ينفثون الى الإنس القليل

من الشعر والأوزان : « وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ، ومساحة الأرض ؟ ! »

والحيوان عند المعري عاقل ناطق ، كما هو عند ابن شهيد ، غير أنه يستطيع التحوّل اذا شاء ، فان حيّة الفردوس همّت بأن تنتفض من إهابها فتصير مثل أحسن غواني الجنة ، ليترشف الشيخ ابن القارح رضابها ، وهذا لم تستطعه بغلة أبي عيسى في التوابع والزوابع ، مع ما بها من الشوق الى أبي عامر . وكلاهما ذكر الإوز في رسالته ، فأما إوزة ابن شهيد ، فانها أديبة نحوية تبحث في الأصول والفروع ، ولكنها بلهاء حمقاء ، كما هو معروف عن بنات جنسها ؛ وأما إوزة المعري ، فقد نفضت عنها في الجنة بلّه الإوز ، وبوسعها أن تتحول كاعباً حسناء ، ترفل في وشي الفردوس ، وتحسن الغناء والضرب على الأوتار . وقد أبدع أبو عامر في وصف حركات إوزته وتقلبها في المـاء ، كما أبدع أبو العلاء في سخره اللطيف ، حين أراد جماعة الشعراء أن يقتسموا الإوزات المغنيات ، فقال لبيد بن ربيعة : « إن أخذ أبو ليـلى قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرها في الجنة ، فلا يؤمَن أن يُسمى فاعلو ذلك أزواجَ الإوز ! »

والسخر في رسالة الغفران من أخصّ ميزاتها الأدبية ، فان ضرير المعرة على تشاؤمه المظلم ، يلجأ اليه في تصانيفه ، تسلياً

لآرائه الفلسفية ، وإرضاء لشكه واضطرابه في الغيبيات والعقائد الدينية ؛ ويميل بـه في الرسالة الى الدعابة والعبث ، فهو ناعم الملمس لا خشونة فيه ، عميق الغور ، يغشيه ستار من الإيمان والاستدلال بالآيات والأحاديث . فاذا صنع ابن القـارح مأدبة في الجنان ، قال : وتلك لذة يهبها الله ، عزّ سلطانه ، بدليـل قوله : « وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذّ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بمـا كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . » واذا انفلقت ثمار الجنة عن حوريات تبرَق لحسنها ، قـــال : هذا كما جاء في الحديث : « أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ، بَلْهَ مـا اطّلعتم عليه . »

فمدار سخره عـلى ما يتصوّر الناس من الأشياء المـادية في الآخرة ، ثم علي عقيدة الغفران ، وسهولة الحصول عليه عندهم ، فربما غفر الله للخاسر ببيت من الشعر يُحفظ ويُروى ، كما غفر للأعشى وزهير وعَبيد والحطيئة .

ولا تخلو رسالة التوابع والزوابع عن السخر ؛ فـان ابن شهيد ، في تعرضـــه للشعراء والأدباء ، أخرج الكلام عليهم مُخرَج الهزل والتهكم ؛ إلا أن سخريته تتّسم بالحدّة والخشونة والإقذاع والوضوح ، كما في قوله : « وقلت للمنشدة : مـــا

هَـوِيتُ ؟ قالت : هـوِيتُ ، بلغة الحمير . فقلت : والله ، إن للرَّوث رائحة كريهة ، وقد كان أنف النـاقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وقلما تلطف واستدق فيهـــا ، مثل قوله للإوزة النحوية : « محمول عنـك ، أمٌّ خفيف ، لا يلزم الإوزُّ حفظُ أدب القرآن . »

وأما لغة التوابع فانهـا رشيقة طليّة ، موشاة أنيقة ، غنية بالأوصاف والصور والألوان ، بخـلاف رسالة الغفران ، فـان لغتها تكاد تفتقر الى الوشي والتصوير ، إلاّ مـا اقتبس صاحبها من القرآن ، أو أخـذ عن سابقيه . وهذا أمر طبيعي في كاتب ضرير طَـفِيء النور في عينيه عن الصورة واللون ، قبـل سن الادراك والتمييز . فأبو عامر يسمو على المعري برونق الديباجة ، ودقة الوصف ، ولكنه ينحدر عنـه بعمق الفكرة ، ولطافـة السخر ، وقوة الجـاذبية ، وسحر الاستهواء ؛ وله فضل المتقدم على كل حال .